مـاهر عبد الواحـد

عُشّاقُ لُغَةِ الضّـادِ

عشاق لغة الضاد

ماهر عبد الواحد

الطبعة الأولى.. يوليو 2015

الغلاف للفنان: عبد القادر الحسيني

رقم الايـداع: 15560 - 2015

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر: **مؤسسة عبد القادر الحسيني الثقافية**

المقطم - الهضبة الوسطى خلف الجامعة الحديثة

5275 شارع عماد مصطفى

تليفون: 27273280 - موبايل: 01144059975

الإهْــداءُ

أهْدِي هَذا الكِتابَ إلى زَوْجَتي الغاليةِ

التي شارَكتني رحْلة الحَياةِ وتحَمّلتْ التصَاقِي بالكتبِ

والأوْراقِ والحَاسُــوب، على حِسَــابِ وقتنا

وكانتْ دائِما راضية سائلة اللهَ أنْ أنهِي

أعْمَالي الأدَبيّة بإتقان

.

تقديم

للدكتور / محمد السيد موسى

الحَمْدُ لله رَبِّ العالمين والصَلاة والسّلامُ على أشرَفِ الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الغرّ الميامين وسلم تسليما كثيرا.. وبعد..

فإن من أسْرار اللغةِ العربيةِ مسَايرتها للأساليبِ المختلفة وتماشيها مع المواقف والسياقات حسبما يتطلب المقام اللغوي والنفسي، وَقد شرَّف الله اللغة العربية بأنها كانت لغة القرآن الكريم الذي هو دستور الأمة وملاذ نجاتها للمسلمين الذين يبلغ عددهم مليارًا ونصفا على اختلاف لغاتهم وأجناسهم.

قال تعالى: ﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ فصِّلت(٣).

والرسولُ ﷺ خاطب قومه العرب بلسانهم، قالَ تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**...﴾ابراهيم (٤)، ولابد للمفسر والمحدّث من إتقانها وامتلاك نَاصيتها حتى يقف على الفهم الصحيح، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لابد في تفسير القرآن والحديث من أن يُعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ، وكيف يُفهم كلامه، فمعرفة العربية التي خُوطبنا بها مما يُعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه».

وقال ابنُ الصلاح: وحقّ على طالب الحديثِ أن يتعلم من النحو واللغة ما يتخلص به من شين اللحن والتحريف ومعرتهما، وهذا الإمام الشافعي – رحمه الله – الذي ظل عشرين سنة يتبحر في اللغة العربية وعلومها ليفقه ويفهم القرآن والسنة، ولا يستغرب منه هذا، فهو الذي يقول: «أصحاب العربية جنُّ الإنس، يُبصرون ما لم يبصر غيرُهم»، أما المستشرقون المنصفون فقد أخلصوا القول والوصف للغة الضاد، فقال المستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس: «إن في الإسلام سندًا هامًا

للغة العربية أبقى على روعتها وخلودها، فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة، على نقيض ما حدث للغات القديمة المماثلة كاللاتينية».

وقال جوستاف جرونيباوم: «تمتازُ العربيةُ بما ليس له ضريب من اليسر في استعمال المجاز، وإن ما بها من كنايات ومجازات واستعارات ليرفعها كثيرا فوق كل لغة بشرية أخرى.وللغة خصائص جمّة في الأسلوب والنحو ليس من المستطاع أن يكتشف له نظائر في أيِّ لغة أخرى، وهي مع هذه السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعاني، وفي النقل إليها،يبين ذلك أنّ الصورة العربية لأيِّ مثل أجنبي أقصر في جميع الحالات».

وقد قيض الله تعالى للغة العربية من ينهضون بها ويدافعون عنها وينفضون عنها غبار الزيف والإعراض والتعالي، فراحوا في حرب لا هوادة فيها يبيتون الصحيح وينقصون الغث المشين الذي فشا وانتشر على الألسن في لحنٍ بغيض..

ونسأل الله – عز وجلّ – أن يكون كاتبنا: المهندس ماهر عبد الواحـد، أحد هؤلاء الغيورين والمدافعين عن لغة الضاد والمنقحين عنها، فقد نذر نفسه باحثا في أغوارها، منقبا عن خفاياها، دليلا لمحبيها وطلابها في صبر ومثابرة مأجور عليها بإذن الله تعالى وفضله، راجيا من الله أن يجعل عمله خالصا لوجهه الكريم وأن يجعله في ميزان حسناته.

وقد استوعب الكتاب الذي بين أيدينا فنونا كثيرة ولطائف غزيرة ماتعة شائقة، مفيدة حق الفائدة، وقد طوَّف بنا في بحور البلاغة واللغة والنحو والأدب بأسلوب أدبي رقيق وقلم واعٍ وحصيف، يأخذ بلبّ القارئ ويستحوذ على ذهنه.

أ. د. محمد السيد موسى

كلية التربية / جامعة المنصورة

٢٠ أبريل ٢٠١٥

مُقَدِّمَةُ المُؤَلِّفْ

عندما شرعت في كتابة مقالات «إلى عشاق لغة الضاد «العام الماضي عبر الفيسبوك، لم يخطر ببالي أنني سأطبعها مجمعة في كتاب، يحمل نفس الاسم، لكن كثيرًا من عشاق لغة الضاد طلبوا مني ذلك، وعند عرضي للفكرة على بعض الأصدقاء من أساتذة اللغة العربية بالجامعة، ممن كانوا يتابعون المقالات، رحبوا بالفكرة أيما ترحيب.

كنتُ أقصِدُ في البدء إلى إبراز جَمَال لغتنا العربية، وكيفَ نحببها للشباب من ناحية، وكيفية تعريف كل من البلاغة والفصاحة ومقاييس كل منهما من ناحية أخرى، وذلك عن طريق ضرب أمثلة من البديع في القرآن الكريم والشعر العربي، محاولا كشف الدر الكامن في أعماق بحر اللغة العربية، مرورا بالمجاز، والبحث في أوجه الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، وكان لعيون الشعر بديوان العرب، خصوصا امرئ القيس، دورٌ في إبراز مواطن الجَمال وأسَاليب البلاغة.

وقد تطرقت لقضية نفى السجع من القرآن الكريم، وتطرقت إلى المقامة البغدادية، ومررت بشعراء النقائض، ثم وقفت على بلاغة القرآن الكريم وبلاغة الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم أوضحت أساليب البلاغة الثلاثة، ثم عرضت المجاز بنوعيه اللغوي والعقلي وتحدثت عن التشبيه، مرورا بعلم البديع، ثم كتبت مقالا كاملا عن الأمثال في القرآن الكريم، وقد أعربت فاتحة الكتاب، وكان المقال الأخير بعنوان «عُمَيْرَة ودع إن تجهزت غاديا» لارتباط هذا العنوان بمثل كان يتمثل به سيدنا رسول الله ﷺ (وهو الشطر الثاني من البيت) من ناحية، وارتباطه بقضية هامة حاول الإسلام التخلص من آثارها، من ناحية أخرى، وهى قضية الرق والعبودية.

ماهر عبد الواحد

٢٠١٤/٦/١٢

مُقَدِّمَة

بقلم الأستاذ الدكتور

عبد الحميد القط

رئيس قسم اللغة العربية

كلية التربية – جامعة المنصورة

كتب الأستاذ ماهر عبد الواحد كتابه بعنوان «عشاق لغة الضاد»، وهو سياحة في جوانب من الأدب العربي، يهدف من ورائها إلى أن يكشف للشباب المصري ما في هذا الأدب من جوانب الجمال والثراء الفكري، ليتجهوا إليه ويقرأوه، ويتعرفوا إليه عن قرب كما فعل هو.

وهذا الجانب التربوي يدفعه إلى السياحة في جوانب بلاغية ونقدية، وهو في المقال الأول من هذا الكتاب يتكلم عن بلاغة القرآن في الحذف، ويؤكد على أن كل لفظ لو نزع من معناه لا يسد مكانه غيره. وهذا هو الإعجاز الذي خضعت له أعناق الكافرين المعاندين.

ويتعرض لما تعرض له عبدالقاهر الجرجاني من أن البلاغة والفصاحة ليست صفة لاحقة باللفظ وإنما يكتسب اللفظ بلاغته من السياق، فأنت تجد كلمة الأخدع تحسن في البيت التالي:

تَلَفَّتُّ نحو الحيِّ حتى وجدتُني وجعت من الإصْغاءِ ليتا وأخْدَعَا

وهو يريد أن يصور طول انتظاره وتلفته حتى آلمه عنقه وكلمة الأخدع يكون لها من الجمال مالا خلاف عليه، ولكنها قد تقبح هى نفسها في سياق آخر مثل:

يا دهر قوم من أخدعيك، فقد أضجَجْتَ هذا الأنامَ من خُرُقِكَ

فتجد كلمة الأخدع قلقة نابية في مكان ليس لها من الحسن ما لكلمة الأخدع في البيت السابق، لأن الحسن والقبح ليس لاصقا بالكلمة المفردة، وإنما هى تكتسبه من السياق وتختلف كلمة الأخدع عنها عند أبي تمام في بيته السابق إذ يقول البحتري:

وإني وإن بلغتني شرف الغنى وأعتقت من رق المطامع أخدعي

فالكلمة هنا تكتسب جمالا فوق جمال لاستخدام الاستعارة ولوضع الكلمة في السياق الملائم.

وكذلك يعرض لكلمة شئ وما تتمتع به من الحسن في مواضع، ومالا تتمتع به من الحسن على الاطلاق.

ويتحدث عن الفصاحة والبلاغة ويضرب لذلك مثلا أبياتا لامرئ القيس، والتي تبدأ بقوله:

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل

وهى من أجمل أبيات الغزل العربي، وينوه بجمالها وروعتها ويشرحها للقراء، ويتطرق لغير ذلك من الموضوعات ثم ينتقل إلى الفصاحة والبلاغة فيعرفهما، وإذا كان البلاغيون قد جعلوا الفصاحة هى المرحلة الأولى من تحقق البلاغة، وقالوا: كل بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغ، فإنه هو أيضا قد أجاد الشرح والتفسير والاطلاع على المصادر والمراجع.

وفي المقالة الثانية يواصل تتبع وصف أمرئ القيس لمحبوبته مصورا جمالها الفريد ثم رفاهيتها وطيب رائحتها إلى غير ذلك من صفات الحسن في ذلك الزمن، ثم يعود إلى موضوع الفصاحة والبلاغة مرة أخرى، وينتقل إلى مفهوم عبدالقاهر المعروف وهو أن الألفاظ خدم للمعاني، ويوضح موقف عبدالقاهر توضيحا صحيحا.

ثم ينتقل في المقال الثالث إلى موضوع شائك، وهو هل يحتوى القرآن الكريم على شعر؟ وهو موضوع يراه المحققون شيئا لا ينتقص من قدر القرآن، ففي القرآن آيات منظومة وهذا لا يعني أن القرآن الكريم شعرًا بحال من الأحوال، بل إن في كلامنا العادي ما يصدر موزونا ولا يعد شعرًا لأن القصد إلى الشعر فيه معدوم، كما يوضح أن الرجز ليس بشعر وهكذا كان يرى القدماء في الغالب.

ثم يتحدث عن البديع في القرآن الكريم ويضرب أمثلة من البديع في الشعر وفي القرآن، ويتضح من هذه الأمثلة الجهد الكبير للمؤلف والاطلاع الواسع له. ثم يتكلم عن حدود الاحتجاج الزمانية والمكانية. وفي المقال الخامس يتوسع في هذا البديع توسعا ملحوظا.

ويتحدث عن الأسلوب في المقال الخامس، عن البديع والاستعارة، وهو وعبد القادر الجرجاني متفقان على أن قوله تعالى: ﴿واشتعل الرأس شيبا﴾ ليس الجمال بها بسبب الفكرة البلاغية وإنما بسبب النظم، وهو التركيب اللغوي للجملة التي تشتمل على الاستعارة، وكذلك الشأن في قوله تعال:﴿وفجرنا الأرض عيونا﴾ إذ الأصل فيها وفجرنا عيون الأرض وليس الجمال للاستعارة وحدها بل للنظم.

ويتحدث عن قضية مهمة، وهى قضية البديع في الكتابة النثرية، ويستشهد بالقرآن باعتباره مثلا أعلى للإبداع في اللغة العربية، وهذا يدل على أن الشعر لا يستقل بساحة الإبداع وحده، ولذا كان القرآن الكريم معجزا، ويتعرض مرَّة أخرى لمصطلح البلاغة والفصاحة، وينقل آراء القدماء في هذا الشأن.

وقد حل عبدالقادر الجرجاني هذا بقوله: إنهما يرجعان للمعنى ولا يرجعان للفظ، في حين يرى غيره آراء أخرى.

ثم نلتقي بالمقال الثامن الذي يعود الكاتب فيه إلى الحديث عن امرئ القيس ويشرح بعضا من شعره الغزلي، ثم يعود إلى الإشارة للإعجاز القرآني ويذكر بعد ذلك كثيرًا من المصطلحات البلاغية ثم يعود في نهاية المقال إلى الحديث عن أن القرآن الكريم معجز.

ثم هو يصل إلى المقال التاسع فيعود إلى الحديث عن البلاغة مستشهدا بأقوال الجاحظ في تعريفها. ويتحدث عن الوقوف على الأطلال وما فيه من البلاغة، ثم يقوم بتقطيع بعض الأبيات عروضيا.

وهو في المقال العاشر يعلن أنه يريد أن يكشف عن الدر الكامن في اللغة العربية، وهو معجب أشد الإعجاب بامرئ القيس ولذلك فهو يحلل بعض أبيات معلقته، ثم ينتقل إلى أبيات جرير التي يقول فيها:

بانَ الخليطُ برامتينِ فودَّعُوا أوَ كلما جَدُّوا لبينٍ تجْزَعُ
كيفَ العَزاءُ ولمْ أجدْ مُذْ بنتمُ قلباً يَقر ولا شراباً يَنْفَعُ
وتقولُ بَوْزَعُ قدْ دببتَ على العَصا هلاَّ هزأتِ بغيرنا يا بوزَعُ

وهو يدافع عن البيت الثالث لجرير، وهو حر في ذلك ولكن البيت جعل الخليفة يسأله: من بوزع هذه؟ أهى غول يخوفون به الصبيان؟ فقال جرير إنها امرأة.فقال الخليفة: امرأة واسمها بوزع؟ أفسدت علينا ليلتنا، قفا يا غلام، وأخرجه من مجلسه. ثم يتحدث عن الصدق والكذب في الشعر، ويضرب أمثلة لذلك، أما عيب الأصمعي بقول النابغة:

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود

فإن الكاتب محق فيه تماما، فهو بيت نادر في جودته وروعته.

ويدافع عن بيت مهلهل:

فلولا الريح اسمع من بحجر صليلَ البيض تقرع بالذكور

وهو بيت معيب لما يتضمنه من المبالغة في صوت اصطدام الذكور السيوف بالبيض وهو خِوَذ الفرسان التي فوق رءوسهم ولكنى، أوافقه على جودة بيتي حسان:

لنا الجفناتُ الغرُّ يلمعن بالضُحى وأسيافنا يقطرن من نجدةٍ دمًا
ولدنا بني العنقاء وابنى محرَّق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابن ما

فقد انتصر للبيتين، وأنهما بيتان جيدان كما قال، وربما كان النابغة متحيزا للخنساء، إذ قال لحسان، والله لولا أنه مدحتني امرأة هى أشعر الإنس والجن، لاستمعت إليك،فقال له حسان: والله إني لأشعر منها، ومنك ومن أبيك وجدك.

ثم يجول بنا في أرجاء قصيدة عمروبن كلثوم التغلبي، لينتقل إلى قول الشاعر:

إذا أنت لم تنفع فضر، فإنما يراد الفتى كيما يضر وينفعا

ويأتي بقول زهير:

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ثم يطبق هذا المذهب الحاق الضرر بالناس ومساواته بنفعهم، أو أن الذي لا يحمي نفسه، لابد أن يلحقه الضر والأذى، والبيت الثاني به بعض المعقولية لأنه يصور الحياة الجاهلية التي تقوم مبدأ القوة والغلبة.

وينتقل بعد ذلك إلى الوصف في الشعر ثم يعود لامرئ القيس مرَّة أخرى فهو في الغالب مغرم به، ويمضى في شرح وصفه للمطر والسيل وهو يجيد الوصف والتقديم والشرح.

ثم يعود مرَّة أخرى إلى الإعجاز القرآني، وأحد أدلة هذا الإعجاز هى الإخبار عما لم يقع بعد، أو الإخبار عن الغيوب، ويستدل على ذلك بآى القرآن الكريم، ثم يرحل به إلى بديع الزمان الهمذاني (٩٦٩-١٠٠٧) ويذكر إحدى مقاماته الطريفة وهى احتيال أحد النصابين على ريفي بغدادي مستغلا سذاجته ليزج به إلى المطعم، ثم يتخلى عنه ليتحمل السوادي القروي ثمن الطعام. ولا شك أن هذا الذي قدمه الكاتب ماهو إلا وسيلة لجر رجله إلى طريق القراءة، والإطلاع والاستزادة من تراث الآباء والأجداد.

والكاتب حريص على ألا يترك إعجاز القرآن في رحلته الطويلة في مقالاته، كما أنه لا يترك الشعر، فيتعرض لمعلقة الحارث بن حلزة، وهكذا يمضي بين الشعر والقرآن وهو بهذا يضيف إلى ثقافة قارئه أشياء لا يعلمها إلا المتخصصون حتى الإعراب النحوي وبعض المسائل الخلافية فيه تعرض لها، وكأنه يرى ألا يترك شيئا لا يقدمه لقارئه، ويتعرض للنقائض ويمثل ببعض الأشعار، ويأتي بقصيدة للفرزدق هجا بها جريرا، ومطلعها:

إنَّ الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول

ويرد جرير بقصيدة أروع من قصيدة الفرزدق، وهكذا يمضي الكاتب معرفا فيه الهجاء شارحا له.

ويتعرض للخطابة في العصر الإسلامي، كما يتحدث عن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، ويتحدث عم الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، ثم يتحدث عن أسماء الله الحسنى وآثارها المباركة. ثم يمضي في الحديث عن ذلك حديثا بارعا، ثم ينتقل

إلى موضوع فلسفي حول صفات الله، وإن كانت فلسفة خفيفة مقبولة. وينتقل من ذلك كله إلى «تصريف» الأفعال التي يتولاها علم الصرف، فيتكلم عن أوزان الأفعال، وعن المزيد والمجرد.

و لا ينسى أن يحدث قراءه عن أساليب الكتابة، من أسلوب علمي، وخطابي، وأدبي، ويتحدث عن هذه الأساليب بصورة موفقة. ثم يعود إلى البلاغة فيتحدث عن التشبيه حديثا شيقا، ثم ينتقل إلى المجازاللغوى وهو المجاز في الكلمة المفردة ثم يتحدث عن الاستعارة المكنية. ولعله نظر في هذا إلى تعريف عبد القاهر للمجاز اللغوي والمجاز العقلي، فقد جعل المجاز في الكلمة المفردة مجازا لغويا، والمجاز في الاسناد مجازا عقليا، ويمضي في الحديث عن البلاغة حديثا مطولا، ورائعا حقا.

ويتحدث عن الإيجاز والإطناب ويعود مرَّة أخرى إلى البلاغة متحدثا عن أحد أقسامها وهو علم البيان الذي يراد به إيراد المعنى الواحد وبطرق مختلفة في وضوح الدلالة كما يقال.

ثم ينتهي بفاتحة الكتاب، فيشرحها ويبين الفوائد التي تتضمنها، ثم يتعرض لخطبة حجة الوداع التي ألقاها النبي الكريم ﷺ ثم يختم بقصيدة «سحيم عبد بني الحسحاس».

وهي قصيدة جيدة ثم تنتهي بهذا مقالاته، ولقد تغاضينا عن كثير من التفاصيل بالمواضيع المهمة التي لابد أن يقرأها القارئ بنفسه ليدرك القيمة الكبيرة لهذه الدراسات الرائعة في مجالات وإن بدت مختلفة فإنها متكاملة. ولابد من الإشارة بالجهد العظيم الذي بذله المؤلف في كتابة هذه المقالات ودقته في إخراجها ووعيه بكل ما كتبه فيه، ونرجو له التقدم والرقي في تلك الدراسات التي تعرف بالأدب العربي وبقيمة الكلمة.

الأستاذ الدكتور

عبد الحميد القط

رئيس قسم اللغة العربية

كلية التربية – جامعة المنصـــورة

السبت ٢٠ مايو ٢٠١٥

المقال الأول:

تقـديم

وردت الأدعية البليغة الآتية، بمقدمة كتاب الحيوان للجاحظ: «جَنَّبَكَ اللهُ الشبْهَةَ، وعَصَمَكَ مِنَ الحَيْرَةِ، وجَعَلَ بينك وبين المَعْرفةِ نسَبَا، وبين الصِّدق سَببا، وحَبَّبَ إليك التثبت، وزيَّنَ في عَيْنيكَ الإنصَافَ، وأذاقكَ حَلاوة التقوى، وأشعَرَ قلبَكَ عِزَّ الحَقِّ، وأوْدَعَ صَدْرَكَ بَرْدَ اليقين، وطرَدَ عَنكَ ذُلَّ اليأس، وعَرَّفكَ ما في الباطل مِنَ الذلةِ، وما في الجَهْلِ من القِلة».

عِندَ تحْقيقِ القولِ على البلاغة، والفصَاحَة، والبيَانِ والبراعَةِ وكل ما شابه ذلك، مما يُعبر بِهِ عن فضلِ بَعْض الكتَّاب أو المتحدثينَ على بَعْض، من عِلم اللغةِ نقولُ إنَّ وصْفَ الكلام بحُسْن الدّلالة وتمامِها، ثم إخراجُها في صُورة من القبول، أزين وأعجب وأحق بأن تستولي على هوى النفس والقلب، وأن تأتي المعاني مع اختيار الألفاظ لتكسبها نبلا وجمالا، لذا يجب أن يُنظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخبارا وأمرا ونهيا وتعجبا، وتؤدى في الجملة مَعْنى مِنَ المَعَاني التي لا سَبيلَ إلى إفادَتِها إلا بضم الكلمات والألفاظ.

انظر إلى قوله سبحانه وتعالى بسورة هود، آية (٤٤) حيث يقول سبحانه: ﴿**وقيلَ يا أرضُ ابلعِي مَاءَك ويا سَمَاءُ أقلعي وغيضَ المَاءُ وقضيَ الأمْرُ واستوت على الجُودِيِّ وقيل بُعْدا للقوْم الظالمين**﴾ فإنكَ تجدُ ارْتباطا مُحْكماً بين الكلمات بعضها ببعض، وتأمل هل ترى لَفظة منها بحيث لو أُخِذَتْ مِنْ بين أخواتها وأفردَتْ، تؤدي من الفصَاحَةِ ما تؤديه وهى مكانها من الآية، فكلمة « ابلعِي» لو اعتبرتها وَحْدَها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها ستؤدى المعنى، وما أجمل أن تنادى الأرض ثم تؤمر، وقد كان النداء «يا» دون «أي» نحو «يا أيتها الأرض» ثم إضافة الماء إلى «الكاف» دون أن يقال: «ابلعي الماء» ثم أن أُتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، نداء

السماء وأمرها بما يخصها، ولذلك بنى الفعل للمجهول، ثم أن قِيل: و«غيض الماء» فجاء الفعل على صيغة «فُعِلَ» الدالة على أنه لم يَغِضْ إلا بأمر وقَدْرَةِ قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: «وقُضي الأمر»، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو: «استوت على الجُودي» ثم إضمار السفينة قبل الذكر، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة «قيل» في الخاتمة بـ«قيل» في الفاتحة، إنها خصائص تملؤك احساسًا بالإعجاز والرَوْعَة. وهذا يؤكد لنا أنَّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها في ملاءمة اللفظة للمعنى التي تليها، ونؤكد على أن التناسب والانسجام من أهم الخصائص والسمات التي يتحقق بتحققها الجمال وينتفي بانتفائها، وإليك أمثلة على ذلك:

١ – انظر إلى كلمة «الأخدَع» في الأبيات الثلاث الآتية: [الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني، بدلائل الإعجاز ص ٤٧]

في البيت الثاني من أبيات الشاعر: الصمة القشيري (الحماسة)، من قصيدته التي مطلعها «خليلي عوجا منكم اليومَ أودعا»:

ولما رأيت البشر أعرض دوننا وجالت بنات الشوق يحنن نُزَّعا
تلفتُ نحْوَ الحَيِّ حَتَّى وجَدتني وَجِعْتُ مِن الإصْغاءِ ليتا وأخدعا
فإن كنتم ترجون أن يذهب الهوى يقــينا ونروي بالشراب فتنقعا
فرُدوا هُبوبَ الريح أو غيروا الجوى إذا حَـلَّ ألـواذ الحَـشا فتمَـنَّعا

الليت: صفحة العنق، الأخدع: عرق في العنق.

تلاحِظ أنَّ: كلمة أخدع هنا مفردة ومقبولة.

وبيت البحتري:

وإني وإنْ بلغتني شرف الغِنى وأعْتقتَ مِنْ رقّ المَطامع أخدَعِي

فإن لها في هذين الموضعين مالا يخفى من الحسن، ونلاحظ أنها مفردة، ولكن عند التثنية كما في أبيات أبي تمام، فإنها تفقد رونقها وهو يقول:

يا دَهْرُ قوِّم مِنْ أخدَعيْكَ، فقدْ أضججتَ هَذا الأنامَ مِنْ خُرْقِكَ

فتجد لها من الثقل على النفس، ومن التنغيص والتكدير، أضعافَ ما وجدتَ هناكَ من الرَّوح والخِفة، ومن الإيناس والبهجة (٢). وقد لاحظ بعض العلماء أن بعض الألفاظ لا تأتى في القرآن الكريم إلا مجموعة مثل (الألباب – الأكواب – الأرجاء) وبعضها لا يأتي إلا مفردا مثل الأرض.

٢ – كذلك لفظة «الشيء»، فإنك تراها مقبولة حسنة في موضع، وضعيفة مستكرهة في موضع آخر، وإن أردت أن تعرف ذلك، فانظر إلى قول عُمَر بن أبي ربيعة المخزومي:

وَمِنْ مَالئ عَينيهِ مِنْ شيء غيره إذا راحَ نحْوَ الجَمْرَةِ البيضُ كالدُّمى

وقول أبي حيَّة:

إذا ما تقاضى المَرْءُ يومٌ وليلةٌ تقاضاه شيْء لا يَمَلُّ التقاضيا

فإنك تعرف حُسْنها ومكانها من القبول، ثم انظر إليها في بيت المتنبي:

لو الفلكُ الدوارُ أبغضتْ سَعْيَهُ لعوَّقه شيْء عَن الدورانِ

وقد حدد ابن سنان ثمانية شروط لفصاحة اللفظة المفردة هي:

١ – أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج.

٢ – أن تجد لتأليف اللفظة في السمع حسناً ومزية على غيرها، وان تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة.

٣ – أن تكون الكلمة – كما قال أبو عثمان الجاحظ – غير وعرة وحشية.

٤ – أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية.

٥ – أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة.

٦ – أن لا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره، فإذا وردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت، وإن كملت فيها الصفات السابقة.

٧- أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف.

٨- أن تكون الكلمة مصغّرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل مما يجري مجرى ذلك فهي تحسن به.

أما الفصاحة والبلاغة والتواؤم فنراها جميعا بالفطرة في أبيات امرئ القيس، انظر إليه وهو يقول معاتبا حبيبته فاطمة:

أفاطمَ مَهْلا بَعْضَ هذا التدلل ... وإنْ كنْتِ قدْ أزمَعْتِ صَرْمِي فأجْمِلي
أغرَّكِ مِنى أنَّ حـُـــــبَّكِ قاتلِي ... وأنَّـكِ مَهْما تأمري القلبَ يَفْعَـلِ
وإنْ تَكُ قدْ ساءَتْكِ مِنى خليقةٌ ... فَسُلِّي ثيابي مِنْ ثيابِكِ تنسُلِ
وما ذرفتْ عيناكِ إلا لتضربي ... بسَهْمَيْكِ في أعْشار قلبٍ مُقتَّلِ

وإذا نظرنا إلى البيت الأول نجد على رأسه فاطم، فهي متربعة على عرش قلبه وعلى قمة أبياته، وإذا أمعنا النظر في مادة فطم نجد:

فطمت المُرْضعُ الرَضيعَ فطماً: أي قطعت عنه الرضاعة.
انفطم: أي انقطع عن الرضاعة.
الفطام: قطع الولد عن الرضاعة.

الدولة الفاطمية: تنتسب إلى السيدة فاطمة الزهراء، والفواطم هم خلفاء الدولة الفاطمية، وأنت تلاحظ اسم (فاطمة الزهراء) حيث ترتبط فاطمة بالزهراء، أما الزهراء فمن مادة زهر حَيْثُ:

زَهَـــرَ: زهر الوجه أو السراج أو القمر زهرا وزهورا وزهرة أي تلألأ وأشرق، زهر النبات أي طلع زهره.
زَهِـــرَ: زَهَراً وزهارةً وزهورةً أي حَسُنَ وابيضَّ وصَفا فهو أزهر وهى زهراء. والأزهر هو كلِّ أبيض صافٍ مُشرق مضيء.
الأزهران: هما الشمس والقمر.
الزهراء: لقب السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم. ونحن

نقول: فاطمة وفاطم وفطيمة وفطومة.

يطلب منها امرؤ القيس التمهل، مهلاً أي رفقاً، والتدلل والدلال هو أن يثق الإنسان بحب غيره إياه فيؤذيه على قدر ثقته به، وإن كنت أزمعت صَرْمِي أي وطنت نفسك على ذلك فأجملي أي أجملي الهجران.

أغرَّكِ مِني أنَّ حُبَّكِ قاتلي وأنك مَهْما تأمُري القلبَ يَفعَلِ

يقول امرؤ القيس لفاطم قدْ غرَّكِ مني كونَ حُبك قاتلي، وكون قلبي منقادا لك بحيث مهما أمرته بشيء فعله، وألف الاستفهام دخلت على هذا القول للتقرير لا للاستفهام.

وَإنْ تكُ قدْ ساءتك مني خليقةٌ فسُلّي ثيابي من ثيابكِ تنسُلِ

تنويه: جعل بعض العلماء الثيابَ هنا بمعنى القلب، كما حَمّلها عنترة:

فشككتُ بالرُمْحِ الأصَمِ ثيابَه ليسَ الكريمُ على القنا بمُحرّمِ

وقد حملت الثياب في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وثيابَكَ فطهِّرْ**﴾ على أنَّ المرَادَ به القلب، وبذلك يكون المعنى: إن ساءك خلق من أخلاقي وكرهت خصلة من خصالي فردي عَلَيَّ قلبي أفارقكِ، والمَعْنى استخرجي قلبي من قلبكِ يفارقه. النسول هو سقوط الريش، وقد أخذ بعض العلماء كلمة ثيابي على أنها الثياب التي تلبس وقال: كني بتباين الثياب وتباعُدِهَا عن تباعدهما وقال: إن ساءك شيء من أخلاقي فاستخرجي ثيابي من ثيابك أي ففارقيني وكما تحبين، فإني أختار ما تحبين وما تختارين.

وما ذرَفَتْ عَيْناكِ إلا لتضربي بسَهْمَيْكِ في أعْشار قلبٍ مُقتَّلِ

ذرف الدمعَ: ذرفًا وذروفًا وذريفًا أي سالَ.

ذرفت العين: أي سَالَ دَمْعُها وأسَالته فهو مَذروف وذريف، وللعلماءِ في البيت قولان، قال أكثرهم: اسْتعَارَ للحْظ عَيْنيْهَا ودمعهما أثر السهم لتأثيرهما في القلوب

وجرحهما إياها، كما أن السِّهَامَ تجرح الأجْسَامَ وتؤثر فيها.

الأعشارُ مِنْ قوْلِهم: برمة أعشار إذا كانت قطعًا، ولا واحد لها من لفظها.

المُقتل: المُذلل غاية التذليل، والقتلُ في الكلام التذليل، ومنه قولهم: قتلتَ الشرابَ إذا فللت غرْبَ سَوْرَته بالمَزْج، ومِنه قوْلُ حَسَّان:

إن التي ناولتني فرددتها قتلتْ قتلتَ فهاتها لم تقتل

وتلخيص المعنى، كما يقول الزوزني في شرح المعلقات العشر هو: وما دمعت عيناك وما بكيت إلا لتصيدي قلبي بسهمي دمع عينيك وتجرحي قطع قلبي الذي ذللته بعشقك غاية التذليل، وقال آخرون: أراد بالسهمين المعلى والرقيب من سهام الميسر، والجزور يقسم إلى عشرة أجزاء، فللمعلى سبعة أجزاء وللرقيب ثلاثة أجزاء، فمن فاز بهذين القدحين فقد فاز بجميع الأجزاء وظفر بالجزور، وتلخيص المعنى على هذا القول: وما بكيت إلا لتملكي قلبي كله وتفوزي بجميع أعشاره وتذهبي بكله، والأعشار على هذا القول جمع عشر لأن أجزاء الجزور عشرة، والله أعلم

تنوع مفاهيم الفصاحة:

كان من الضروري قبل نهاية المقال الأول أن نتحدث عن تنوع مفاهيم الفصاحة، وتوضيح أن الفصاحة «لغة واصطلاحاً ومفهوماً – بمعزل عن البلاغة ومدلولاتها – كانت هَمَّ اللغويين القدماء في القرون الهجرية الأربعة الأولى. إذ ألحّ على هؤلاء التساؤل التالي: أي لغات العرب هِيَ الأفصَح؟ بل أيها التي تصلح أن تكون «حجة في استقراء قواعد «العربية الفصحى ؟.

ولقد تنبّه اللغويون الأوائل إلى أن «العربيّة الفصحى» تنبع من ثلاثة مصادر رئيسة هي: القرآن الكريم وأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، والشعر العربي الجاهلي، كذلك المخضرم إلى رأس المائة الهجرية، إلا أنهم في بعض حديثهم جعلوا «الفصحى» لغة قريش: قبيلة الرسول عليه السلام، ثم أقرّوا من بعد ذلك أن مقياس الفصاحة لأي قبيلة عربية إنما هو بمقدار قربها أو بعدها من لغة قريش.

كان هدف اللغويين العرب القدامى هو حراسة الفصحى لغة القرآن الكريم. وهذا الهدف الديني هو الذي ارتبط بأذهانهم وأذهان من خلفهم من علماء العربية، وهو الذي جعلهم يضعون الشروط والقواعد، بل قل القيود، لحماية الفصحى. فكانت القيود الزمنية والمكانية –وهي المسماة بعصور الاحتجاج–. فليست كل لهجة عربية تعدّ فصيحة، وليس أبناء كل عصر يعتبرون فصحاء. على أننا نلحظ في الدراسات اللغوية القديمة موقفين محدّدين من الفصاحة اللغوية تطوّرا ليصبحا مقياسين مختلفين من مقاييس الفصاحة وهما:

١– الموقف البصري، ويمثله موقف أبي عمرو بن العلاء (المتوفى عام ١٥٤هـ) الذي سأله رجل: أخبرني عما وضعت مما سميت عربية! أيدخل فيه كلام العرب كله؟ فقال: لا، قال: كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجّة؟ فقال: أحمل على الأكثر، وأسمي ما خالفني لغات».

٢– الموقف الكوفي، ويمثله موقف إمامهم النحوي أبي العباس ثعلب (المتوفى عام ٢٩١هـ) في كتابه المشهور (الفصيح أو فصيح الكلام)، ومفاده أن مداد الفصاحة في الكلمة على كثرة استعمال العرب لها.

إنّ المتمعن في آراء اللغويين في القرون الهجرية الأربعة الأولى يجد أنهم اختلفوا في مواقفهم ولم يصلوا إلى مقياس واحد محدّد للفصاحة، أو إلى اعتبار لغة ما أو لهجة ما هي الفصيحة، وإن كان هناك إجماع على اعتبار لغة قريش هي الفصيحة لأن قريشاً هي قبيلة الرسول وهو القائل حين تعجب رجل من فصاحته: «إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين». وأضاف اللغويون القدامى حجة أخرى وهي ما قاله عثمان بن عفان رضي الله عنه لكتبة الوحي حين أمرهم بكتابة المصحف الموحّد: «... فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم».

وهذا يعني أن القدماء اعتبروا لغة قريش هي مقياس اللغة الفصحى وقد يكون هذا الاعتبار السبب في إهمال كثير من لغات القبائل العربية الأخرى. يضاف إلى هذا أن لهجات القبائل العربية – غير القرشية– قد وصفت بخصائص صوتية معينة

كالعنعنة والكشكشة وغيرها مما دعا اللغويين إلى استهجانها ووصفها باللغات المذمومة (انظر آخر الفصل).

غير أنّ هذا الموقف لم يمنع بعض اللغويين من الجهر بأن اللغات العربيّة (أي اللهجات) كلّها حجة. بل لقد أضافوا إلى هذا أن للعربيّ الفصيح مستويين من التعبير: أحدهما الفصيح، والآخر دون ذلك (وقد يعني هذا الآخر أنه إما غير فصيح أو أنه أقل فصاحة من الأول)، ثم لا يؤثر ذلك على منزلته – أي العربي– لدى اللغويين من حيث اعتبار لغته حجة يستشهد بها على قواعد النحو.

ومجمل الأمر أن معظم اللغويين القدامى قد جعلوا العرب صنفين: فصحاء أو غير فصحاء. ولم يكن لهم – في غالب الأمر– مقياس منهجي محدّد لاعتبار هذا التقسيم سلياً. غير أن الدراسات أثبتت أن مقياساً واحداً ظل قائماً في أذهان اللغويين ألا وهو: مدى موافقة أو مخالفة كلّ واحدة من اللهجات العربية لغة القرآن الكريم.

معرفة الرديء المذموم من اللغات:

قال الفراء: كانت العربُ تحضر المَوسِم في كل عام وتحجُّ البيتَ في الجاهلية وقريشٌ يسمعون لغاتِ العرب فما اسْتحسنوه من لغاتهم تكلّموا به فصاروا أفصحَ العرب وخلَتْ لغتُهم من مُستبْشع اللغات ومُستقبَح الألفاظ؛ من ذلك: الكَشْكَشة وهي في ربيعة ومضر يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شيناً فيقولون: رَأَيْتُكش وبكَش وعَلَيْكَش فمنهم من يُثبتُها حالةَ الوقف فقط وهو الأَشْهر ومنهم من يُثبتها في الوصل أيضا ومنهم من يَجعلها مكانَ الكاف ويكسرها في الوصل ويُسكنِّها في الوقف فيقول: مِنْش وَعَلَيْش.

ومن ذلك: الكَسْكَسة وهي في ربيعة ومُضر يجعلون بعد الكافِ أو مكانها في المذكر سيناً على ما تقدم وقصدوا بذلك الفَرْقَ بينهما.

ومن ذلك: العَنْعَنة وهي في كثير من العرب في لغة قيس وتميم تجعل الهمزة

المبدوء بها عينًا فيقولون في أنك عنّك وفي أسْلم عَسْلم وفي أذُن عُذُن.

ومن ذلك: الفَحفَحة في لغة هُذَيل يجعلون الحاء عَيْنًا.

ومن ذلك: الوكْم في لغة ربيعة وهم قوم من كَلْب يقولون: عليكِم وبكِم حيث كان قبل الكاف ياء أو كسرة.

ومن ذلك: الوهْم في لغة كلْب يقولون: منهِمْ وعنهِم وبينهِمْ وإن لم يكن قبل الهاء ياءٌ ولا كسرة.

ومن ذلك: العَجْعَجَة في لغة قضاعة يجعلون الياء المشدَّدة جيمًا يقولون في تميمي: تميمِجّ.

ومن ذلك: الاستنطاء في لغة سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والأنصار تجعل العين الساكنة نونًا إذا جاورت الطاء كأنْطي في أعْطِي.

ومن ذلك: الوتم في لغة اليمن تجعل السين تاء كالنات في الناس.

ومن ذلك: الشَّنشنة في لغة اليمن تجعل الكاف شينًا مطلقًا كلبَّيْش اللهم لبَّيْش أي لبيك.

وقال ابن فارس في فقه اللغة: باب اللغات المذمومة - فذكر منها العَنْعَنَة والكشكشة والكَسكَسة والحرف الذي بين القاف والكاف في لغة تميم والذي بين الجيم والكاف في لغة اليمن وإبدال الياء جيمًا في الإضافة نحو غُلامج وفي النسب نحو بَصرجّ وكُوفِجّ.

ومن ذلك الخَزْم وهو زيادةُ حرف الكلام لا الذي في العروض كقوله: «ولا للما بهم أبدًا دواء»، وقوله: «وصاليات كَكَما يُؤَثْفَيْنْ»؛ قال: وهذا قبيحٌ لا يزيد الكلام قُوَّة بل يُقَبِّحه.

وذكر الثعالبي في فقه اللغة من ذلك: اللَّخْلَخَانيَّة تَعْرِض في لغة أعراب الشِّحْر وعُمان كقولهم: مَشَا الله [كان]، يريدون: ما شاء الله [كان].

والطُّمْطُمانيَّة تَعْرِض في لغة حِمْيَر كقولهم: طاب أَمْهَوَاء: أي طاب الهواءُ.

وهذه أمثلة من الألفاظ المفردة:

في الجمهرة: الطَّعْسَفَة لغةٌ مرغوب عنها يقال: مرَّ يُطَعْسِفُ في الأرض إذا مرَّ يَخْبِطُهَا.

وفي الغريب المصنف: يقال حفرت البئر حتى أَمَهْتُ وأَمْوَهْت وإن شئتَ أَمْهَيْتُ وهي أبعد.

وفي الجمهرة: تَدَخْدَخ الرجل إذا انقبض لغةٌ مرغوب عنها ورضَبَت الشاة لغةٌ مرغوب عنها والفصيح رَبَضَتْ.

وفي أمالي القالي: يقال: بَغْداد وبَغْدَان ومغدان وبَغْدَاذ وهي أقلها وأردَؤها.

وفي أدب الكاتب لابن قُتَيبة: يقال في أسنانه حَفَر وهو فسادٌ في أصول الأسنان وحَفْر رديئة. ويقال: فلان أحْوَل من فلان من الحِيلة لأن أصل الياءِ فيها واو من الحَول ويقال: أحْيل وهي رديئة.

وفي ديوان الأدب للفارابي: الفصّ بالكسر لغة في الفَصّ وهي أردأ اللغتين وأَشْغَلَه لغة في شَغله وهي رديئةٌ وانْدَخَل أي دخل وليس بجيّد. والدجاج بالكسر لغة في الدجاج وهي لغة رديئة. والوحْل بالسكون لغةٌ في الوحَل وهي أردأ اللغتين. والوَتَد بفتح التاء لغة في الوَتِد وهي أردَأ اللغتين واليسار بالكسر لغة في اليسار وهي أرْدؤُهما. ويقال: هو أَخْيَرُ منه في لغة رديئة والشائعُ خيرٌ منه بلا هَمْز.

وفي الصحاح قال الخليل: أَفَلَطني لغةٌ تميمية قبيحة في أفلتني.

وفي نوادر اليزيدي يقال: أَلَقْتُ الدواة إلاقة ولُقْتُها ليقًا رديئة. وتقول: أَقَلْتَه البيع إقالة وقِلْتُهُ قيلًا رديئة. وأنتن اللحم فهو مُنْتِن وقد يقال له: مِنتِن بالكسر وهي رديئة خبيثة. وتقول في كل لغة: هذا مَلاك الأمر وفِكاك الرقاب وقد جاء عن بعض العرب أنه فتح هذين الحرفين وهي رديئة وتقول: رابني الرجل وأما أرابني فإنها

لغة رديئة.

وفي شرح الفَصيح للبَطْليوسي: الرُّنْزُ: لغة في الأرز وهي رديئة وقال ابن السكّيت في الإصلاح: يقال: في الإشارة: تَلك بفتح التاء لغةٌ رديئة.

قال ابن دَرَسْتَويه في شرح الفصيح: قول العامة نحويّ لغوي على وزن جهل يجهل خطأ أو لغة رديئة وقوله: دَمِعَتْ عيني بكسر الميم لغة رديئة.

وقال ابن خالويه في شرح الفصيح: قال أبو عمرو: أكثر العرب تقول: تلك وتيك لغةٌ لا خيرَ فيها. ويقال: حَدَر القراءة يَحْدُرُها ويَحْدِرها ولا خيرَ فيها وسُؤْت به ظنًّا وأسأت به ظنًّا ولا خيرَ فيها والطِّرياق لغة في التِّرياق ولا خير فيها. وحَوْصَلة الطائر مخفّفة ولا خير في التَّثْقيل وبعضُ العرب يسمِّ الصَّفا والعصا لغة سوء ويقال: تَطَالَلْت بمعنى تطاولت لغة سوء. وتميم تقول: الحمدِ لله بكسر الدال ولا خير فيها. انتهى.

وفي الصحاح: أَوقفت الدابّة لغة رديئة.

وفيه: أَعَقَّت الفرس أي حملت فهي عَقُوق ولا يقال مُعِق إلا في لغة رديئة وهو من النوادر.

وفيه غَلَقْتُ البابَ غَلْقًا لغة رديئة متروكة.

وفيه: لا يقال ماء مالح إلا في لغة رديئة. ولا يقال: أَشَرُّ الناس إلا في لغة رديئة.

وفي تهذيب التبريزي: الحُوار بالضم: ولد الناقة والحوار بالكسر لغة رديئة.

وفي المقصود والممدود للقالي: في نفساء ثلاث لغات: نُفَساء وهي الفصيحةُ الجيدة ونَفْساء ونَفَساء وهي أقلّها وأردؤها.

المقالُ الثاني:

استكمالا لوصف امرئ القيس للمحبوبة، نراه يقول:

مُهفهفة بيضاءُ غيرُ مُفاضَةٍ ترائِبُها مَصْقولة كالسَّجْنْجَلِ

المهفهفة: اللطيفة الخصر الضامرة البطن، المفاضة: المرأة العظيمة البطن المسترخية اللحم، الترائِبُ جَمْعُ التريبة وهي مَوْضِع القلادة من الصَدْر، السقل والصقل (بالسين والصاد): إزالة الصَدأ، السجنجل: المرآة

المعني: هي امرأة دقيقة الخصر ضامرة البطن غير عظيمة البطن ولا مسترخيتة وصدرها براق اللون متلألىء الصفاء كتلألؤ المرآة.

ثم يقول:

وَجيدٍ كجيدِ الرِّئمِ ليسَ بفاحِشٍ إذا هِيَ نصَّتهُ ولا بمُعَطلِ

الرئم: الظبي الأبيض الخالص البياض، والجمع آرام.

النص: الرفع، ومنه سُمِّي ما تجلس عليه العروس منصة، ومنه النص في السير وهو حَمْلُ البعير على سير شديد.

الفاحش: ما جاوز القدر المحمود من كل شيء.

يقول: وتبدي عن عنق كعنق الظبي غير متجاوزة قدره المحمود إذا ما رفعت عنقها وهو غير معطل عن الحلي، فشبه عنقها بعنق الظبية في حَال رفعها عنقها، ثم ذكر أنه لا يشبه عنق الظبي في التعطل عن الحلي، أى أنها تلبس الحلى لأنها امرأة ذات مكانة اجتماعية.

ويقول:

وَكشْحٍ لطيفٍ كالجَديلِ مُخَصَّرٍ وَسَاقٍ كأنبوبِ السَّقيّ المُذلَّلِ

المخصر: الدقيق الوسط، ومنه نعل مخصرة.

الأنبوب: ما بين العقدتين من القصَب وغيره، والجمع الأنابيب.

السَقِي: هنا بمعنى المَسْقِي كالجَريح بمَعْنى المَجْروح، والجَنى بمعنى المَجْنِي.

يقول: وتبدي عن كشح ضَامِر يَحْكِي في دِقته خطاما متخذا من الأديم وعن ساق يَحْكي في صَفاء لوْنِهِ أنابيبَ بَرْدى بين نخل قد ذللت بكثرةِ الحَمْل فأظلت أغصَانها هذا البردي، شبَّه ضمورَ بطنِهَا بمِثل هذا الخطام، وشبَّهَ صَفاءَ لوْن سَاقها ببردي بين نخيل تظله أغصانها، وإنما شرط ذلك ليكون أصْفى لوْنا وأنقى رَوْنقا، وتقدير قوله كأنبوبِ السَقِي كأنبوبِ النخل المَسْقِي، ومنهم من جَعَلَ السَقيَ نعْتا للبردي أيضا، والمَعْنى على هذا القول: كأنبوبِ البردي المسقي المذلل بالإرواء.

ويقول:

وَتضحي فتيتُ المِسْكِ فوقَ فراشِها نؤومُ الضُّحى لَمْ تنتطقْ عن تفضُّلِ

الإضْحَاءُ: مصادفة وقت الضحى عندما تستيقظ ضحىً، وقد يكون بمعنى الصيرورة أيضا في غير هذا البيت، يقال: أضحى زيد غنيا أي صَار، ولا يُرَاد به أنه صادف الضحى على صفة الغنى.

الفتيت والفتات: اسم لدقائق الشيء الحاصل بالفتِّ.

قوله نؤوم الضحى: عطل نؤوما عن علامة التأنيث لأن فعولا إذا كان بمعنى الفاعل يستوي فيه لفظ صفة المذكر والمؤنث، نقول رجل نؤوم، وامرأة نؤوم.

لم تنتطق عن تفضل، أي بعد تفضل، كما يُقال: استغنى فلانٌ عَنْ فقرِهِ أي بَعْدَ فقرِهِ، والتفضل هو لبس الفضلة، وهي ثوب واحد يلبس للخفة في العمل، ولا يلبس هذا الثوب مثلها من النساء المخدومات المرفهات.

يقول: يأتي وقتُ الضُحَىْ وفراشُ العشيقةِ تغمُرُهُ دقائقُ المِسْك، الذي بَاتتْ عليه، وهي تنامُ حَتى هذا الوقتِ، وهي مخدومة منعمة، يكثر فتيتُ المسك حَوْلَ فِرَاشها، وهي لا تباشرُ عَمَلا بنفسها فهي مُنعَّمَة ولها من يَخدمها ويكفيها أمورها.

ثم يقول امرؤ القيس:

تُضيءُ الظلامَ بالعشاء كأنَّها مَنـارَةُ مُمْسي راهــبٍ مُتَبَتِّـلِ
إلى مِثلِها يَرْنو الحَليمُ صَبابَةً إذا ما اسْبَكَرَّتْ بَيْنَ دِرْعٍ ومِجْوَلِ

تضيء الظلامَ إضاءَةً فالفعل المشتق منها قد يكون لازما وقد يكون متعدياً، والفعل ضاءَ يضوءُ ضَوْءًا، وهو لازم.

المنـارة: المسرجة جمعها المناور والمنائر

المُمْسي: بمعنى الإمْسَاءَ والوقت.

الراهِب: يجمع على الرهبان مثل راكب وركبان وراع ورعيان، وقد يكون الرهبان واحدا ويجمع حينئذ على الرهابنة والرهابين كما يجمع السلطان على السلاطنة والسلاطين.

المتبتل: المنقطع إلى الله بنيته وعمله، والبتل هو القطع، ومنه قولهم مريم البتول لانقطاعها عن الرجال واختصاصها بطاعة الله، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً**﴾.

والمعنى: أن الحبيبة تضيء الظلام بنور وجهها وكأنها مِصْبَاحُ راهِبٍ انقطع عن الناس، وقد خص مصباح الراهب أنه يوقده ليهتدي به عند تجوله، فنور وجه الحبيبة يبدد ظلام الليل كمصباح الراهب.

أما البيت:

إلى مِثلِها يَرْنو الحَليمُ صَبابَةً إذا ما اسبَكَرَّتْ بينَ درْعٍ ومِجْوَلِ

الإسبكرار: وهو الطول والامتداد.

الـدرع: هو قميص المرأة، والجمع أدرع ودروع.

المجول: ثوب تلبسه البنت الصغيرة (وقد اشتهر في الستينات تحت اسم الشوال).

يقول: إلى مثلها ينبغي أن ينظر العاقل المُحِبُّ إذا طالَ قدُّها وامتدَتْ قامتها بين من تلبس الدرع وبين من تلبس المجول، أي بين اللواتي أدركن الحلم وبين اللواتي

لم يدركن الحلم، وقد ارتفعت عن سن الجواري الصغار. ويستمر امرؤ القيس في وَصْف الحَبيبة، لكنه يصل إلى بيت غاية في الإبداع واللطف والرقة، فيقول:

تسَلَّتْ عَمَايَاتُ الرِّجَالِ عَنِ الصِّبا وليسَ فُؤادِي عَنْ هَوَاكِ بِمُنسَلِ

سلا فلان حبيبه يسلو سلوا، وسلى يسلى سليا، وتسلى تسليا، وانسلى انسلاء أي زال حبه من قلبه أو زال حزنه.

العماية والعمى واحد، والفعل عمى يعمى.

زعم معظم الأئمة أن في البيت قلبا تقديره: تسلت الرجالات عن عمايات الصبا أي خرجوا من ظلماته وليس فؤادي بخارج من هواها.

و زعم بعضهم أن «عن» في البيت بمعنى « بعد «، تقديره: انكشفت وبطلت ضلالات الرجال بعد مضى صباهم، بينما ظل فؤادي في ضلالة هواها.

تلخيص المعنى: أنه زعم أن عشق العشاق قد بطل وزال، وعشقه إياها باقٍ ثابت لا يزول ولا يبطل.

وبعد أن رأينا ألفاظ امريء القيس ومعانيه، يتبادر إلى الذهن الآن سؤال مهم وهو: هل الفصاحة تكمن في اللفظ أم تكمن في المعنى؟ ودعونا الآن نعرف رأى أحد فقهاء اللغة في نهاية القرن الرابع الهجري، وهو عبد القاهر الجرجاني الأشعري لنعرف موقفه من الفصاحة وهل هي في اللفظ أو في المعنى؟

لقد تبنى اللغويون العرب القدامى المناداة بأن الفصاحة صفة خاصة بالألفاظ مفردة كانت أو غير مفردة. وخصّ مفهوم الفصاحة بما يتعلق بنطق الألفاظ وجمال جرسها. وأدرك عبد القاهر أن هذا التوجّه يتجاهل ناحية مهمة في اللغة وهي: المعنى، إذ الهدف من الألفاظ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بإيصال المعنى إلى أفهام الناس. ومن أجل ذلك أولى عبد القاهر المعنى اهتمامًا بالغـًا بحيث جعله مقدماً على اللفظ، ويمكن ملاحظة رأي عبد القاهر بالإشارة إلى النقاط التالية:

١- يرى عبد القاهر أن الألفاظ خدم وتبع للمعاني في مواقعها. وكذلك فإن

اللفظ تبع للمعنى في النظم. وأن الكلم تترتب في النطق بسببها ترتيب معانيها في النفس. ومعنى ذلك أن الإنسان إذا أراد التعبير عما يجول في نفسه فإن المعاني هي التي ترد على الذهن أولاً، ثم يبحث عن الألفاظ الملائمة لها. ولذلك يرفض عبد القاهر فكرة أن المعاني تبع للألفاظ من أجل أن ترتيبها مكتسب من الألفاظ وترتبها في نطلق المتكلم. ومن هنا نراه يؤكد مرة بعد أخرى أن الألفاظ ما هي إلا خدم للمعاني ومصرّفة على حكمها.

٢- وتبعًا لما تقدم، فإن موقف عبد القاهر يتضح من خلال ما ينادى به من أن الفصاحة هي للمعاني لأنها «تدرك بالعقل لا بالسمع». وعلى ذلك فإن المعنى هو أحد مقاييس الفصاحة عند عبد القاهر الجرجاني.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن عبد القاهر لا يرى فصلاً بين مفهومي كل من الفصاحة والبلاغة، إذ هما «أوصاف راجعة إلى المعاني، وإلى ما يدل عليه بالألفاظ «. ولذلك أشار أحد الدارسين المحدثين إلى أن عبد القاهر قد خلط بين مفهومي المصطلحين «فالفصاحة والبلاغة عنده بمعنى واحد، ولا يمكن أن نفصل بينهما لأن الأولى لا تكون في الألفاظ وإنما في المعاني، ولذلك لا يقال في الكلمة المفردة: إنها فصيحة قبل أن تضم إلى غيرها من الكلمات مكونة جملاً وعبارات لها دلالة واضحة».

وبالطبع هو لم يخلط وإنما قال: إن الفصاحة والبلاغة وغيرها من الكلمات التي تعبر عن هذا إنما ترتبط بالمعنى لا باللفظ.

ويتضح موقف عبد القاهر أيضاً من خلال عباراته الكثيرة التي أكد فيها تقدّم المعنى على اللفظ، وأن الفصاحة لا تتعلق باللفظ من حيث هو لفظ أو نطق حروف بملاءمة اللفظ لمعاني الألفاظ المجاورة له. فيقول: «وهل تجد أحدًا يقول: هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟».

المقالُ الثالث:

لقد كانَ مقياسُ الفصَاحَة لدى معظم اللغويين العرب القدماء ممّن يهتمون بجمع الألفاظ وإيراد مَعَانيها والاستشهاد بها مقياساً خارجياً منصباً على عنصري الزمان والمكان، ولا يحفل بمعايير داخلية تخص الكلمة نفسها وترتيبها الداخلي ونوع حروفها وتآلفها وتنافرها وشروط نصاعتها وقوة تأثيرها.

وقد اتسَعَ مقياس الفصاحة لدى البلاغيين فيم بعد، فشملَ النواحي الخارجية المتصلة بالزمان والمكان، كما شمل النواحي الداخلية التي تتناول مقومات الكلمة نفسها. فمن حيث الزمان والمكان لم يخرج أهْلُ البلاغة عن حدود الزمان والمكان التي وضعها اللغويون قبلهم إلا في أضيق الحدود، غير أن هذا وحده لم يكن كافياً عندهم، إذ ليس ممكناً في اعتقادهم كون الكلمة فصيحة بمجرد عرضها على مقياس شكلي خارجي مع إهمال ما لها من مقومات ذاتية. بل ليس ممكناً عندهم أن تعتبر فصاحة الكلمة في ذاتها دون النظر إلى ما يجاورها من كلمات أو يكتنف الموقف الكلامي من حُجَج.

ولا شك أن اختلاف النظرة إلى وظيفة الكلمة في اللغة هو الذي سبب هذا الاختلاف بين اللغويين والبلاغيين، فاللغويون يهتمون بسلامة اللفظة ونقائها ومن ثمّ الاطمئنان إليها حتى يمكن الاستشهاد بها واستخدامها في الكلام. وأهل البلاغة يهتمون بالتراكيب وسلاستها وما يقوم به ائتلاف الحروف والكلمات من دور في ذلك.

وقد سأل أحدُ الشعراء: هل يحتوى القرآن الكريم على شعر؟وللإجابة على ذلك السؤال أقول: نحن نعلم أن القرآن الكريم نفسه قد نفى ذلك في مواضع عدة، حيث يقول:

١ – ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ**﴾ يس (٦٩).

٢ – ﴿**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ**﴾ الشعراء (٢٢٤ – ٢٢٦).

٣ – ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ الحاقة (٤١).

قد يحتوى الكلام العادي على شعر دون قصد فلا يصح أن نقول أنه شعر، فالقصيدة لا تقل عن سبعة أبيات (وقد تكون أربع)، لكن أن يأتي بيت أو مصراع فليس ذلك بشعر، ومن الأمثلة التي تحدث عنها بعضهم أبياتٌ تقول:

قد قلت لما حاولوا سلوتي ﴿هيهات هيهات لما توعدون﴾

المصراع الثاني ورد في سورة «المؤمنون» (٣٦)

ومما يزعمون أنه بيت قوله سبحانه: ﴿**وجِفانٍ كالجوابِ وقُدُورٍ راسيات**﴾ سبأ (١٣). وهو من بحر الرمل.

كما قالوا أن قوله عز وجل: ﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا**﴾ العاديات (١-٢)، كذلك ﴿**وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا**﴾ الذاريات (١-٣) من بحر البسيط.

كما قالوا أن ﴿**وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ**﴾ فاطر (١٨) من بحر الخفيف.

وقد ضمن أبو نواس بيتا به آية من كتاب الله، حيث يقول:

وفتيةٍ في مجلس وجوههم ريحانهم قد عدموا التثقيلا
دانيـــة عليـــهم ظلالهـــا وذللت قطـــوفها تذليـــلا

وقد ورد كثير من هذه الأمثلة، نقول فيها:

١ – لو كان العرب يحسون أن بالقرآن الكريم شعرا لما سكتوا عليه، لكن البيت الواحد وما على شاكلته ليس بشعر، فأنت لا تجد بالقرآن الكريم بيتين فصاعدا. حيث قال اللغويون أنه حتى لو كان هناك بيتان وزنهما وقافيتهما مختلفان فليسا بشعر.

٢ – قالوا أن الرجز ليس بشعر، لاسيما إذا كان مشطورا، وأن الشعر يطلق إذا قصد القاصد إليه، انظر إلى قول امريء القيس:

وقوفاً بها صحبي علىَّ مطيهم يقولون لا تَهْلِكْ أسى وتحمَّلِ

هو تماما كقول طرَفَه:

وقوفاً بها صحبي علىَّ مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلدِ

واعتُبر هذا شيئا عاديا، كذلك قد يرد في الكلام الدارج أبيات ولا نعتبرها شعرا، كما أن الرجز يعرض في كلام العوام كثيرا، فإذا كان بيتا واحدا فليس ذلك بشعر.

٣ – قال بعضهم أن بالقرآن الكريم كلاما موزونا كوزن الشعر وإن كان غير مقفى، بل هو مزاوج متساوي الضروب وذلك أحد أقسام كلام العرب، فنقول أن القرآن الكريم ليس من هذا القبيل.

٤ – إذا زين شاعر أبياته بآية من القرآن الكريم وقام بتحوير بها لتحويلها إلى شعر فلا نقيس عليه مثل قول الشاعر:

سبحان من سخر هذا لنا (حقًّا) وما كنا له مُقرنين

فنراه بَدَّلَ من ناحيةٍ ومن ناحِيَةٍ أخرى زاد فيه حتى ينتظم له وزن الشعر.

المقالُ الرَابع:

لنضع الآن أيدينا على بعض الأمثلة:

ذكر أهل الصنعة أن من البديع في القرآن الكريم مثل قوله سبحانه وتعالى في سورة الإسراء (٢٤) ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ**﴾، كذلك ﴿**وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ الزخرف (٤)، كذلك قوله سبحانه وتعالى في سورة مريم (٤) ﴿**وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**﴾ كذلك قوله في سورة الحج (٥٥) ﴿**أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ**﴾، والبديع هنا الاستعارة.

ومن البديع في الكلمات الجامعة الحكيمة، قوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة (١٧٩) ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾، وقد يكون البديع في الألفاظ الفصيحة كقوله سبحانه وتعالى في سورة يوسف (٨٠) ﴿**فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا**﴾، كما نجد البديع في الألفاظ الإلهية، كقوله سبحانه في سورة النمل (٩١) ﴿**وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ**﴾ وقوله ﴿**وما بكم من نعمة فمن الله**﴾ سورة النحل (٥٣).

ويذكرون من البديع قول النبي عليه السلام: «خيرُ الناس رجُلٌ ممسكٌ بعنانِ فرَسِه في سَبيلِ الله، كلما سمع هيعةً طار إليها»، وقوله «ربنا تَقبل توْبتي، واغسل حوْبتي»،..؟ وأذكر وأنا بالمرحلة الثانوية طلب منا مدرس اللغة العربية شرح العبارات البليغة البديعة الآتية لسيدنا رسول الله:

١ – الناس كإبل مئة، لا تجد فيها راحلة.

٢ – إنَّ مما يُنبت الربيع ما يَقْتُل حَبَطا أو يُلِم.

٣ – وهل يكب الناسَ على وجوههم في نار جهنم إلا حَصَائدُ ألسِنَتِهم.

أما ما ذكرته من قبل بالمجموعة القصصية (مستنبح) قول أمريء القيس:

وقد أغتدي والطيرُ في وكناتها بمنجردٍ قيْدِ الأوابدِ هَيْكل

حيث «قيد الأوابد» اعتبرها أصحاب الصنعة من البديع ومن الاستعارة ويرونه

من الكلمات البليغة، وقال عنها بعضهم إردافا أو كناية، أي أن يريد الشاعر أن يدل على معنى فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ تابع له مثل قوله أيضا: «نَؤوم الضُّحى لم تنتطق عن تفضل» حيث أراد ترفها، وهذا كثير في شعر أمريء القيس ومنه أيضا قوله:

بعيدة مَهوى القرط إما لَنَوْفلِ أبوها، وإما عبدُ شمسٍ وهاشِمُ

حيث أراد أن يصف طول جيدها فأتى بردفه بُعد مهوى القرط. ومن ذلك أيضا قول أمريء القيس: «وليلٍ كموج البحر أرخى سُدوله» وهى من الاستعارات الحسنة.

ومن أجمل بديع أمريء القيس:

كأن عيونَ الوحْشِ حَوْلَ خِبائِنا وأرحلنا الجَزْعُ الذي لم يُثقبِ

المشبه: عيون الوحش حول الخيام والخباء.
المشبه به: الجزع الذي لم يثقب، وهو الخرز.
وجه الشبه: اجتماع السواد والبياض واللمعان والاستدارة.
أداة التشبيه: كأن
فائدة حذف وجه الشبه: وضوحه للعيان والإيجاز لتوفير هذا الوضوح، فالصفة المشتركة بين المشبه والمشبه به واضحة.

كذلك قوله وهو يشبه شيئين بشيئين:

كأن قلوبَ الطير رَطباً ويابساً لدى وكرها العُنَّابُ والحَشفُ البالي

ومنه كذلك قول بشار:

كأن مُثارَ النقعِ فوقَ رءوسنا وأسيافنا ليلٌ تَهاوى كواكبه

وبيت الفرزدق:

والشيبُ ينهضُ في الشبابِ كأنه ليلٌ يَصيحُ بجانبيهِ نَـهارُ

ومنه قول أمريء القيس:

وسامعتان يُعْرف العِتقُ فيهما كسامعتي مَذْعورةٍ وسطَ ربرَبِ

ومن البديع في التشبيه قول أمريء القيس:

له أيطلا ظبي وساقا نعامةٍ وإرْخاءُ سِرْحانِ وتقريبُ تتفلِ

ومن البديع في الاستعارة قول أمريء القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليَّ بأنواع الهموم ليبـتل
فقلت له لمـا تمطى بصلـبه وأردف أعجازا وناءَ بكلكل

أما البيت الذي سحرني بيانه وجماله في مطلع شبابي فهو للنابغة وقد ذكرته بديوان (لرحيل المحتوم):

وصدر أراحَ الليلُ عازبَ هَمِّه تضاعَفَ فيه الحزنُ من كل جانِبِ

فاستعار من إراحة الراعي لإبله إلى مواضعها التي تأوي إليها بالليل، كذلك تتجمع كل الهموم بصدره وراعيها هو الليل الذي أراح كل هم عازب.

أما بيت امرئ القيس الذي تحدثنا عنه في المقال الأول:

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلبٍ مُقتَّلِ

فيعده العلماءُ من بديع المماثلة، وهو ضرب من الاستعارة وهو عكس الإرداف وهو مبنى على الإسهاب والبسط وذلك أن يقصد الإشارة إلى معنى فيضع ألفاظا تدل عليه. هنا في البيت استعارتان.

أما بيت النابغة الذبياني في الاعتذار والاستعطاف فيقول:

فإنك كالليلِ الذي هُوَ مُدْرِكِي وإنْ خِلتُ أنَّ المُنتأى عَنكَ واسِعُ
خطاطيف حجن في حبال متينة تمد بها أيد إليك نوازع

المشبه: كاف الخطاب في (فإنك). عائد على النعمان بن المنذر.
المشبه به: الليل الذي يدرك الإنسان.
وجه الشبه: الادراك.
أداة التشبيه: الكاف.
تأكيد المعنى وتقويته وتخصيص هذه الصفة دون غيرها.

* ظهر مصطلح الحدود الزمانية والمكانية، عند تقدير الشعراء والكتاب، منذ القرن الرابع الهجري، وهو يرتبط بالقرب أو البعد عن مكة وقريش من ناحية، وعن موعد نزول الوحي من ناحية أخرى، وكان للأئمة أفكار متباينة في ذلك، نختار منهم موقف العلامة ابن سنان الخفاجي صاحب كتاب سر الفصاحة.

موقف ابن سنان من حدود الاحتجاج الزمانية والمكانية:

لم يتقيّد ابن سنان بالحدود الزمانية والمكانية للاحتجاج، تلك الحدود التي جعلها علماء اللغة الأوائل شرطاً في تفضيل أشعار المتقدمين على شعر المحدثين كافة بحجة هي «مجرّد التقدّم في الزمان». وذكر في فصل عنوانه «في ذكر الأقوال الفاسدة في نقد الكلام» أسباب هذا التفضيل وهي: «أن المتقدمين سبقوا إلى المعاني في أكثر الألفاظ المؤلفة، وفتحوا طريق الشعر، وسلك الناس فيه بعدهم، وجروا على آثارهم، فلهم فضيلة السبق التي لا توازيها فضيلة».

وادعى آخرون أن العلّة تكمن في «أن هذه الأشعار المتقدمة كانت تقع من قائلها بالطبع من غير تكلف ولا تصنع». وعزا بعض اللغويين عزوفهم عن أشعار المحدثين إلى أن هذه الأشعار «تقع بتكلف وتعمّل». وهذا ما لم يقع في أشعار المتقدمين إذ الفرق بينهما أن ما «وقع بالطبع أفضل مما صدر عن التكلف».

وقد حاول ابن سنان مناقشة هذه الآراء مبيّناً أوجه ضعفها. ولم يكتف بما قدّمه في هذا الفصل بل جعل آراءه مبثوثة في ثنايا كتابه. ثم شرع في تفسير سبب تفضيل

المتقدمين والاستشهاد بأشعارهم فقدّم كلامه بموقفه الذي يقرّر فيه أن «تقدم الزمان غير موجب لذلك، وإنما موجبه أن العرب الذين يتكلمون باللغة العربية ولا يخالطون أحداً ممّن يتكلم بغير لغتهم هم الذين أقوالهم حجة في اللغة، والعرب الذين خالطوا غيرهم من العجم وفسدت لغتهم بالمخالطة لا يستدل بكلامهم».

والحق أن هذا هو موقف المتشددين من علماء العربيّة الأوائل، غير أن ابن سنان اتسع في مجال الاحتجاج فأجازه عن أي قوم شريطة أن يكونوا في «بعض القفار النائية عن العمارة... لا يخالطون غيرهم». وقد أضاف شرطاً آخر وهو أن يكونوا «قد أخذوا اللغة عن مثلهم، وكذلك إلى حين ابتداء الوضع». وفي هذه الحالة فقط يمكن أن يكون قولهم حجة كأقوال المتقدمين.

لقد اعترف ابن سنان أن أعراب عصره لم يعودوا فصحاء كما كان أجدادهم، بل هم محتاجون إلى أن يتعلموا الفصاحة إذ لم تعد لديهم طبعاً وسليقة. ويقرر ابن سنان أنهم «الآن محتاجون إلى اقتباس اللغة من الحضر، وإصلاح المنطق بأهل المدر». ويشير إلى الحدود الزمانية التي فرضها القدماء في الاحتجاج، فيعلّل أن عدم الاحتجاج بأعراب عصره ليس له تعلق بالزمان بل سببه أن هؤلاء العرب قد تحضروا بعد الإسلام فخالطوا الأرياف والحضر والأعاجم وفارقوا البداوة فحدث أن «عدم منهم الطبع السليم الذي كانوا عليه قبل هذه المخالطة، فهم لا يحتج بكلامهم لهذه العلة، لا لأن القدم والحدوث سببان في الصواب والخطأ».

وأدرك ابن سنان كذلك أن مخالطة الأعراب متفاوتة. وهذا له أثره في فصاحتهم، فيعقب على كلامه السابق بقوله: «ولهذه العلة تختلف العرب في كلامهم بحسب تباينهم في المخالطة، فتجد اليوم من بعد منهم عن الحضر أكثر من غيره إلى الصواب أميل، ومن جانبه أقرب».

وإذا افترض أن من الأعراب في عصره من لو كانوا في بعض الصحارى النائية عن العمارة، وكانوا محافظين في لغتهم على عادة المتقدمين في البدو، ومتمسكين بطبعهم وجارين على سجيتهم «كان على هذا الغرض قولهم حجة واتباعهم واجباً». ولكن هذا غير حادث في عهد ابن سنان لأنه لا يعدو كونه افتراضاً محضاً.

وقد تنبه ابن سنان إلى بعض مواطنِ الخطأ في نطق أعراب عصره. فأشار إلى الخلط في نطق الضاد والظاء لديهم قائلاً: «فقلّ من رأيت من فصائحهم اليوم من يفرق بينهما في كلامه»، وهم لذلك محتاجون إلى التعليم وتصحيح نطقهم إذ إنهم «قلّما يتفق منهم العدول عن النطق بحرف من الكلام إلى حرف آخر والشبه فيهما قوي».

موقف ابن سنان من الاحتجاج بشعر بعض شعراء عصره:

سبق أن أشرنا إلى أن ابن سنان لا يعتد بتقدّم الزمان سبباً لاحتجاجه بشعر الشاعر، ولذلك لم يكن ليتحرّج من الاستشهاد بأشعار المتأخرين حتى شمل ذلك بعض شعراء عصره. ولكنه – وهو الذي عني بالنواحي الجمالية للتعبير – كان يشير إلى مواطن الحسن وإلى ضدها معللاً ومفسراً سبب حسنها أو قبحها. وكان ابن سنان يحاور الشعراء في موضوعات أشعارهم بل وفي ألفاظهم المستخدمة وصورهم التعبيريّة. فقد لاحظ ابن سنان أن بعض شعراء عصره كانوا يتعمدون استخدام الغريب والوحشي عادين ذلك من الفصاحة وكان ابن سنان يقول لشعراء عصره: «إن سررتم بمعرفتكم وحشي اللغة، فيجب أن تغتموا بسوء حظكم من البلاغة».

ويروي ابن سنان أنه جرى في أحد المجالس ذكر أبي العلاء المعري فوصفه أحد الحاضرين بالفصاحة مستدلاً على ذلك «بأن كلامه غير مفهوم لكثير من الأدباء». ولما كان هذا الاستدلال لا يتوافق ومقاييس ابن سنان في الفصاحة فإنه يهب معترضاً ومبيناً حقيقة أمر الفصاحة بقوله: «إن كانت الفصاحة عندك بالألفاظ التي يتعذر فهمها، فقد عدلت عن الأصل المقصود أولاً بالفصاحة التي هي البيان والظهور. ووجب عندك أن يكون الأخرس أفصح من المتكلم، لأن الفهم من إشاراته بعيد عسير، وأنت تقول: كلما كان أغمض وأخفى كان أبلغ وأفصح».

وقد أيد موقفَ ابن سنان أحدُ أدباء عصره وهو أبو العلاء صاعد بن عيسى الكاتب (المتوفى سنة ٤٢٧هـ) فأقر بأنه لا يفهم كثيراً مما يقوله أبو العلاء المعري، وأضاف: «إلا أنه على قياس قولك يجب أن يكون ميمون الزنجي الذي نعرفه أفصح من أبي العلاء لأنه يقول ما لا نفهمه ولا أبو العلاء أيضًا».

وأبو العلاء صاعد بن عيسى الكاتب هذا يذكره ابن سنان في موضع آخر مثنياً على بعض شعره الذي يراه متوافقاً مع أحد شروطه للفصاحة. من ذلك ما ورد في أثناء حديثه عن الشرط الذي يقضي بأن تكون الكلمة مصغرة في موضع عبّر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما يجرى مجرى ذلك. ومن أمثلته قول صاعد بن عيسى:

إذا لاح من برق العقيق ومِيْضة تدقّ على لمح العيونِ الشوائم

و يعلق ابن سنان على هذا البيت بقوله: «أفلا تراه لما أراد أنها خفيّة تدقّ على من ينظرها حسن التصغير في العبارة عنها».

و شكا ابن سنان أيضاً من ولوع شعراء عصره وكتاب أهل زمانه بتكرار الألفاظ. وقد رآه بعضهم فناً فاتبعوه، فوصف ابن سنان كلامهم هذا الذي يتعارض مع بعض شروطه للفصاحة بقوله: «وما أعرف شيئاً يقدح في الفصاحة ويغض من طلاوتها أظهر من التكرار لمن يؤثر تجنبه، وصيانة نسجه، إذ كان لا يحتاج إلى كبير تأمل، ولا دقيق نظر، وقلما يخلو واحد من الشعراء المجيدين أو الكتاب من استعمال ألفاظ يديرها في شعره، حتى لا يخلّ في بعض قصائده بها. فربما كانت تلك الألفاظ مختارة، يسهل الأمر في إعادتها وتكريرها، إذا لم تقع إلا موقعها، وربما كانت على خلاف ذلك».

ولاحظ ابن سنان أن أحد شعراء عصره وهو: مهيار بن مرزوية (المتوفى سنة ٨٢٤هـ) كان «ممن غُري بلفظة طين وطينة» فكان يكررها في كل أشعاره. وهو وإن كان يضعها موضعها اللائق بها مرة فإنه كان يتكلف استعارتها لما لا يليق بها أخرى. وقد علّق ابن سنان على عمل مهيار بقوله: «فهذا وإن لم يكن محمودًا عندي، فهو أصلح من التكرار في القصيدة الواحدة أو البيت الواحد».

ومما يلاحظ أن ابن سنان قد أكثر من ذكر أبي العلاء المعري إذ يبدو أنه كان معجباً به ومعتداً بتتلمذه عليه. إذ كثيراً ما يقدمه ويشير إليه بقوله «شيخنا». ويمكن حصر استشهاد ابن سنان بأبي العلاء المعري في النقاط الثلاث التالية:

١ – الاستشهاد بما حسن من شعره وتعبيره: فمن ذلك قول ابن سنان في موضوع الاستعارة: ومن الاستعارة المحمودة التي كأنها حقيقة قول شيخنا أبي العلاء:

وكأن حبّك قال حظكَ في السّرى فُلْطمْ بأيدي العيس وجه السَّبْسَب

وهذا من قربه لو قيل إنه حقيقي غير مستعار جاز ذلك، وإن كان على محض الاستعارة أحسن وأحمد.

٢– ذكر ما لم يحسن من شعر أبي العلاء إذ لم يكن إعجاب ابن سنان بالمعري وتتلمذه عليه برادّه عن أن يذكر بعض معايب تعبيره كما في حديثه عن (المجانس) وهو فن ورد في شعر أبي العلاء، وسماه (مجانس التركيب)؛ لأنه يركب من الكلمتين ما يتجانس به الصيغتان، كقوله:

مطايا مطايا وجدكنَّ منازلٌ منى زلّ عنها ليس عني بمقلع

وفي تعليقه على البيت يعلن ابن سنان عدم رضاه عنه إذ يقول:

«وما أحفظ لأحد من الشعراء شيئاً من قبيله، وهو عندي غير حسن ولا مختار ولا داخل في وصف من أوصاف الفصاحة والبلاغة».

٣– ذكر بعض أقوال أبي العلاء في الحكم على جمال الشعر وقبحه، ومن ذلك قول المعري: «إن من الشعر ما يصل إلى غاية لا يمكن تجاوزها».

المقالُ الخامس:

بين المحسنات البديعية خيط رفيع من البلاغة.. دعونا الآن نكمل أنواع البديع بشكل من نظام حتى لا تتداخل الخطوط، فالمحسنات البديعية بينها خيط رفيع من البلاغة، لذلك دعونا نتحدث بإيجاز شديد عن:

١ – بديع الغلو في الصفة: كقوله تعالى في سورة الملك (٨) ﴿**تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ**﴾.

وكقول عنترة:

فازورَّ مِنْ وَقع القنا بلبانِهِ وشكا إلىّ بعبْرَةٍ وتحَمْحُمِ

٢ – بديع المماثلة: وقد سماه قدامة (التمثيل) مثل قول امريء القيس:

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلبٍ مُقتَّلِ

٣ – المطابقة: أن يذكر الشيء وضده، كالليل والنهار، والسواد والبياض ونظيره في القرآن الكريم: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾ البقرة (١٧٩)، ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ**﴾ الروم (١٩).

ومنه قول أمريء القيس:

وتردى على صم صِلاب مَلاطِسٍ شديداتِ عَقدٍ لينات مِتانِ

٤ – التجنيس: وهو أن تأتي بكلمتين متجانستين مثل: فأقم وجهك للدين القيم، وأسلمت مع سليمان، يا أسفا على يوسف، وهم ينهون عنه وينأون عنه.

ومنه قول أبي تمام:

يمدون من أيدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تصولُ بأسياف قواضٍ قواضِبِ

٥ – المقابلة: وهى أن يوفق بين معان ونظائرها والمضاد بضده، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ**﴾ النحل (٥٣ – ٥٤).

قال تأبط شراً:

أهزُّ به في ندوةِ الحيِّ عِطفهُ كما هزَّ عِطفي بالهجانِ الأوارِكِ

٦ – الموازنة: كقول امريء القيس:

سليمُ الشظا عَبْلُ الشوى شِنجُ النسا له حَجَبات ٌمُشرفاتٌ على الفالِ

٧ – المساواة: وهى أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى، لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، كقول جرير:

فلو شاءَ قومي كان حِلمي فيهمُ وكان على جُهال أعدائهم جَهْلي

٨ – الإشارة: وهو اشتمال اللفظ القليل على المعاني الكثيرة، وقال بعضهم عن البلاغة (البلاغة لمحة دالة) ومن ذلك قول طرفة:

فظل لنا يوم لذيذ بنعمةٍ فقُلْ في مَقيلٍ نحسهُ مُتغيبِ

ونظيره من القرآن: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا**﴾ الرعد (٣١).

٩ – المبالَغَة: والغلو وهى تأكيد معاني القول، كقول زهير:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قومٌ بأولهم أو مجدهم – قعدوا

١٠ – الإيغال: كقول امرىء القيس:

كأن عيون الوحش حَول خبائنا وأرحلنا الجَزْعُ الذي لم يثقبِ

١١ – التوشيح: وهو أن يشهد أول البيت بقافيته وأول الكلام بآخره، كقول البحتري:

فليس الذي حَللته بمحلل وليس الذي حرَّمته بحرام

ومثله في القرآن الكريم، قوله سبحانه ﴿**فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ**

اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ المائدة (٣٩).

١٢ – صحة التقسيم: كقول الشاعر

فكأنها فيه نهارٌ ساطِعُ وكأنه ليلٌ عليها مظلمُ

١٣ – صحة التفسير: وهو أن توضع معان تحتاج إلى شرح أحوالها، فإذا شرحت أثبتت تلك المعاني من غير عدول عنها ولا زيادة ولا نقصان. كقول القائل:

ولى فرس للحلم بالحلم مُلجمٌ ولى فرسٌ للجهل بالجهل مُسْرَجُ

١٤ – التكميل(التتميم): وهو أن يأتي بالمعنى الذي بدأ به بجميع المعاني المصححة المتممة لصحته، المكتملة لجودته، من غير أن يخل ببعضها، ولا أن يغادر شيئا منها، كقوله سبحانه **﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** لقمان (٣٤)

١٥ – الترصيع: مثل قول أمَريء القيس:

مِخشٍّ مِجشٍّ مُقبلٍ مُدبرٍ معاً كتيسِ ظباء الحلَّب العَدَوان

وقول أبى نواس:

ديارُ نوارٍ ما ديارُ نوار كسونك شجواً هُنَّ منه عَوَار

١٦ – الترصيع مع التجنيس: كقول ابن المعتز:

ألم تجزع على الربع المُحِيل وأطلال وآثار مُحُول

ونظيره من القرآن: **﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾** القلم (٢–٣)، **﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾** الطور (١ –٢)

١٧ – التكافؤ: وهو قريب من المطابقة، كقول المنصور: لا تخرجوا من عز الطاعة إلى ذل المعصية، وقول عمر بن ذر: إنا لم نجد لك إذ عصيت الله فينا خيراً من أن نطيع الله فيك.

١٨ – السلبُ والإيجاب: كقول القائل:

و ننكر إن شئنا على الناسِ قولهم ولا ينكرون القـولَ حينَ نقول

١٩ – الكناية والتعريض: كقولِ القائل:

وأحمر كالديباج، أما سماؤه فريّا، وأما أرضه فمحول

٢٠ – العكس والتبديل: ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿**يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ**﴾ الحج (٦١).

وكقول الشاعر

وإذا الدرُّ زان حُسْنَ وجوهٍ كان للدر حُسْنُ وجهك زينا

٢١ – الالتفات: ومنها قول جرير

أتنسى إذ تودعنا سُليمى بفرع بشامَةٍ؟ سُقى البَشام

وكذلك قوله:

متى كان الخيام بذي طلوح – سُقيتِ الغيث – أيتها الخيامُ

ومثله قول حسان (قبل إسلامه):

إن التي ناولتني فرددتها قُتِلتْ قُتِلتَ فهاتها لم تُقتَلِ

٢٢ – الاعتراض والرجوع: كقول زهير:

قف بالديار التي لم يعفها القِدَمُ نعمْ، وغيرَها الأرواحُ والديَمُ

٢٣ – التذييل: وهو ضرب من التأكيد كقول جرير

قد كنت فيها يا فرزدق تابعاً وريشُ الذُّنابي تابع للقوادم

٢٤ – الاستطراد: كقول السموأل:

وإنا لقوم لا نر ى القتلَ سُبّةً إذا ما رأته عامرٌ وسَلولُ

٢٥ – التكرار: كما في سورة الناس.

٢٦ – الاستثناء.

المقال السادس:

انظر إلى امريء القيس في وصف المحبوبة (كما قلنا في بداية المقال الثاني) كي نرى أساليب الكلام وإظهار الفصاحة، والتشبيه الدقيق الرائع، والوصف البليغ، فنراه يقول:

مُهفهفة بيضاءُ غيرُ مُفاضَةٍ ترائبُها مَصْقولة كالسَّجْنَجَلِ

مُهَفْهَفةٌ بيضاءُ غيرُ مُفاضةٍ ترائبُها مَصْقولةٌ كالسجنجلِ
مهفهفة: أي ذاتِ خِصْر ضامِر البطن.
غير مفاضة: غير مسترخية اللحم.
الترائب: مفردها التريبة، وهي موضع القلادة من الصدر.
الصقل والسقل: إزالة الصَدأ، والفعل صقل يصقل وسقل يسقل.
السجنجل: المرآة، وكذلك قطع الذهب والفضة.

فهي امرأة دقيقة الخِصْر، ضامرة البطن، غير عظيمة البطن ولا مسترخية، وصدرها براق لامع متلألِيء في صفاء، يعكس الضوء كما المرآة.

إن كنت عربيا لكنك لا تبلغ في الفصاحة الحدَّ الذي يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام، ووجوه تصرُّف اللغة، وما يُعَدُّ فصاحة وبلاغة فإنك لا يمكنك الوصول إلى مكامن الإعجاز بكلمات القرآن الكريم أو البلاغة بطبقات فحول الشعراء. روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصف زُهَيرًا، فقال: كان لا يمدح الرجلَ إلا بما فيه.

وقال لسحيم، وهو عبد بنى الحَسْحاس حين أنشده شعره:

عُمَيْرَة وَدِّعْ إنْ تجَهَزْتَ غاديا كفى الشيبُ والإسلامُ للمَرْءِ ناهيا

أما إنه لو قلت مثل هذا لأجزتك عليه.

وروى أن جريرا سُئل عن أحسن الشعر فقال:

أن الشقيَّ الذي في النار منزله والفوزُ فوزُ الذي ينجو مِنَ النار

حيث فضله لصدق معانيه، وقد قالوا قديما أن «إحسن الشعر أكذبه» كقول النابغة:

يَقُدُّ السَّلوقيَّ المُضاعَفَ نَسْجه ويوقدْنَ بالصُّفاح نارَ الحُباحِبِ

اشتهر البحتري بالصنعة، وتخير الألفاظ الرشيقة للمعاني البديعة فتجده يصف بعض الأشعار فيقول:

حُزْنَ مُسْتعْمَلَ الكلام اختيارًا وتجنبنَ ظلمةَ التعْقيدِ
ورَكبْنَ اللفظ القريبَ فأدركْـ ـن به غاية المُرادِ البعيدِ
كالعذارى غَدَوْنَ في الحُلل الـ ـبيضِ إذا رُحْنَ في الخُطوط السُّودِ

البعض من الشعراء يميل إلى الرصين من الكلام، الذي يجمع الغريب والمعنى القريب، ومنهم من يختار الوحشي من الشعر، وقد سأل احدهم بشار بن برد في جرير والفرزدق، أيهما أشعر ؟ فقال: جرير أشعرهما، فقيل له: بماذا ؟ فقال: لأن جريرًا يشتد، إذا شاءَ، وليس كذلك الفرزدق، أنه يشتد أبدا.

قال أبو عُبيده: سمعت أبا عمرو يقول: زُهَيرٌ والحُطيئَة وأشباههما عَبيدُ الشعر، لأنهم نقحوه، ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين.

قال الباقلاني: ولا يخفى على أحد يميز سَبْكَ أبي نواس من سبك مسلم ولا نسج ابن الرومي من نسج البحتري، وينبهه ديباجة شعر البحتري، وكثرة مائه، وبديع رونقه، وبهجة كلامه، إلا فيما يسترسل فيه، فيشتبه بشعر ابن الرومي، ويحركه ما لشعر أبى نواس من الحلاوة والرقة والرشاقة والسلاسة، حتى يفرق بينه وبين شعر مسلم. وكذلك يميز بين شعر الأعشى في التصرف، وبين شعر امرىء القيس، وبين شعر جرير والأخطل، والبعيث والفرزدق، وكل له منهج معروف وطريق مألوف

وكان زهير يسمِّى كبْر شِعْره «الحَوْليات المنقحة»، وقال عدى ابن الرِّقاع:

وقصيدة قد بتُّ أَجْمَعُ بينها حتى أقوِّمَ ميلها وسِنادَها
نظرَ المُثقفِ في كعوبِ قناتِهِ حتى يُقِيمَ ثِقافُهُ مُنْـــآدَها

كما قال سُوَيْدُ بن كُراع:

أبيتُ بأبوابِ القوافي كأنما أصادي بها سِرْباً من الوحش نُزَّعَا

وقد قال قائل: للحَرْبِ والضرْبِ أقوامٌ لها خُلِقوا وللدواوين كُتابٌ وحُسَّابُ

وقد تحدثنا من قبل عن تشبيه شيئين بشيئين كبيت امرئ القيس:

كأن قلوبَ الطيرِ رَطباً ويابِسًا لدَى وكرها العُنَّابُ وَالحَشفُ البالي

وكذلك بيت الفرزدق:

والشيبُ يَنْهَضُ في الشَّبابِ كَأَنَّه ليْلٌ يَصيحُ بجانبيهِ نهارُ

كذلك بيت بشار:

كأنَّ مثارَ النقع فوْقَ رؤوسنا وأسيافنا، ليْلٌ تهاوى كواكبُهُ

وأعجب من كل ذلك، قول زياد الأعجم:

وإنا وما نلقي لنا إن هجوتنا لكالبحر، مهما يلق في البحر يغرقِ

وهو أعجب، لأن عمله أدق، وطريقهُ أغمض، ووجه المشابكة فيه أغرب.

انظر إلى قوله سبحانه وتعالى في سورة مريم (٤) ﴿**وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**﴾ فالجمال هنا ليس جمال الاستعارة فقط، وهى هنا تماما مثل «طاب زيد نفسا» و«قرَّ عمرو عينا»، و«حسن وجها»، وذلك لأننا نعلم أن «اشتعل» للشيب في المعنى، وإن كان هو للرأس في اللفظ، كما أن «طاب» للنفس، و«قرَّ» للعين، وإن أسند إلى ما أسند إليه، وقد يسأل سائل: ما السبب في أن كان «اشتعل» إذا استعير للشيب على هذا الوجه، كان له الفضل؟ ولم بان بالمزية من الوجه الآخر، نقول له أن السبب أنه

يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو الأصل ويفيد الشمول، وأنه قد شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استغرقه وعم جملته، حتى لم يبق من السواد شيء، وهذا لا يكون إذا قيل: «اشتعل شيب الرأس» أو «اشتعل الشيب في الرأس».

ومن الجميل أن نعرف أن الآية بها شيئا آخر من جنس « النظم» وهو تعريف «الرأس» بالألف واللام، وإفادة معني الإضافة من غير إضافة، وهو أحد ما أوجب المزية، ولو قيل: «واشتعل رأسي» فصرح بالإضافة، لذهب بعض الحسن.

ومن نظير ذلك في القـــرآن الكريم أيضـًا، قوله ســبحانه وتعـالى: ﴿**وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا**﴾ القمر (١٢)، التفجير للعيون في المعنى، وأوقع على الأرض في اللفظ، كما أسند هناك الاشتعال إلى الرأس. وقد حصل بذلك من معنى الشمول هاهنا، وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد كانت صارت عيونا كلها، وأن الماء قد كان يفور من كل مكان منها، ولو أجرى اللفظ على ظاهره، فقيل: وفجرنا عيون الأرض، أو وفجرنا العيون في الأرض، لم يفد ذلك ولم يدل عليه، ولكان المفهوم منه أن الماء قد فار من عيون متفرقة في الأرض وتبجس من أماكن منها.

المقالُ السابع:

يقولُ بعضُ الأدباء أن النثرَ يتأتى فيه من الفصاحَةِ والبلاغة مالا يتأتى في الشعر، لأن الشعر يُضَيِّقُ نطاقَ الكلام، ويمنع القولَ من انتهائه، ويصده عن تصرفه وإتمامه، وقد استشهدوا على ذلك بفصاحة وبلاغة القرآن الكريم.

لكننا نعلم جميعاً أنَّ معظم براعَةِ العرب في الشعر، وقد حكى عن المتنبي أنه كان ينظر في المصحف الشريف من آنٍ لآخر، وهذا دليل على أنه وجد في كلام الله من الفصاحَةِ والبلاغةِ الكثير.

وبالطبع نظم القرآن الكريم يزيد عن كلِّ نظم، لأنه كلام الله، لكن من الطريف ومن المضحك أن نجدَ كلاماً لمن حاولَ تقليدَالقرآن الكريم فخرج بكلام مضحك خالٍ من كل بلاغة وذوق، ودعنا – أخي العزيز– نذكر أمثلة مما نسبت إلى مسيلمة الكذّاب، فمنها:

١ – حدث خلاف وقع بين قوم أتوه من أصحابه، فقال لهم: «والليل الأطخم، والذئب الأدلْم، والجزع الأزلْم، ما انتهكت أسيد من محْرم»!.
٢ – وقال أيضا: «والليل الدَّامِس، والذئبِ الهامِس، ما قطعت أسيد من رطْب ولا يابس»!.
٣ – وكان يقول: «والشاء وألوانها، وأعجبها السّود، وألبانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حرم المَذق، فما لكم لا تجتمعون»!.
٤ – وكان يقول: « ضِفدَع بنت ضِفدَعَين، نقّى ما تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارِب تمنعين، ولا الماءَ تكدرين، لنا نصف الأرضَ ولقريش نصفها، ولكن قريشًا قوم يعتدون»!.
٥ – وكان يقول: «والمبديات زرْعًا، والحاصدات حَصْدًا، والذاريات قمحًا، والطاحنات طحْنًا، والخابزات خبزا، والثاردات ثَرْدا، واللاقمات لقْما، إهالةً وسمْنًا، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهلُ المَدَر، ريفكم فامنعوه، والمُعْتَرَّ فآووه، والباغي فناوئوه».
٦ – وقالت سَجَاحُ بنت الحارث بن عقبان وكانت تتنبأ، اجتمع مُسَيْلمه معها

فقالت له: ما أوحى إليك؟

فقال: «ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، ما بين صفاق وحَشا» !

٧ – قالت وما بعد ذلك؟!

قال: أوحى إلىَّ: «إن الله خلق النساءَ أفواجًا، وجعل الرجالَ لهن أزواجًا، فنولج فيهن قعْسًا إيلاجًا، ثم نخرجها إذا شئنا إخراجًا، فينتجن لنا سِخَالاً نِتاجًا».

فقالت: أشهد أنك نبي !!

يقولون أن أبى بكر الصديق رضي الله عنه سألَ أقوامًا قدموا عليه من بني حنيفة، عما يقول مسيلمة فقالوا بعض ما نقلنا، فقال أبو بكر: سبحان الله ! ويحكم، إن هذا الكلام لم يخرج عن ربوبية، فأين كان يذهب بكم ؟! وبالطبع هذا الكلام لا بلاغة ولا بديع ولا منطق ولا ذوق فيه.

لكن من الهام أن نضع أيدينا على مقاييس الفصاحة، وقد نشر الدكتور محمود عبد الله الجفال (الجامعة الأردنية) دراسة شيقة عنها، لكنها خاصة بالقرن الخامس الهجري، وفيها يقول في التمهيد لها:

لعلّ من المفيد بادئ ذي بدء أن نحدد المقصود بمصطلحي «المقاييس» و«الفصاحة».أما كلمة «المقاييس» فهي جمع «مقياس» من الجذر الثلاثي (ق ي س)؛ وينصرف المعنى اللغوي لها إلى المقادير. وقاس الشيء يقيسه قياساً إذا قدّره على مثاله، والقياس تقدير الشيء بالشيء؛ والمقياس: المقدار، وما قيس به.

وعند أهل الأصول، كما ينصّ على ذلك السيد الجرجاني في كتاب التعريفات، أن القياس هو «إبانة مثل حكم المذكورين بمثل علته في الآخر. واختيار لفظ (الإبانة) دون (الإثبات) لأن القياس مظهر للحكم لا مثبت له».

وفي عرف اللغويين أن المقياس هو «الأساس الذي نبني عليه ما نستنبطه من قواعد اللغة أو صيغ في كلماتها، أو دلالات في بعض ألفاظها». والمقياس أيضاً هو المكيال أو الميزان الذي يحكم به على صحة اللغة ألفاظاً وتركيباً.

وقد يحلو لبعض الدارسين المحدثين استخدام مصطلح «معيار» بدلاً من مقياس.

على أنّ موقفنا هنا يتلخص في أن مقياس الفصاحة يعني الحكم على الألفاظ والتراكيب العربيّة من خلال النموذج الأرقى في التعبير المتمثل في لغة القرآن الكريم وتراكيبه من ناحية، ولغة الشعر العربي القديم وتراكيبه من ناحية أخرى. إذ نجد أن أكثر الدارسين اللغويين من قدماء ومحدثين يقرّون أن الفصاحة هي ما يمثله هذان النموذجان.

وأما مصطلح «فصاحة» فقد تناوله عدد غير قليل من الباحثين بالدرس والتحليل. ولقد تركزت أكثر هذه الدراسات على المفهوم البلاغي للفصاحة كما وردت في أعمال البلاغيين القدامى. إذ نجد أن علماء البلاغة ومؤرخيها قد تناولوا موضوع الفصاحة، لغة ومصطلحاً. غير بعيد عن البلاغة.

أما معنى الفصاحة لغة فقد ذكر ابن فارس في معجمه مقاييس اللغة أن الفاء والصاد والحاء: أصل يدل على خلوص في شيء، ونقاء من الشوب. ثم استخدمت الكلمة لتدل على اللسان فقيل: أفصح الرجل أي تكلم بالعربيّة.

وهذا يدل دلالة واضحة على أن القصد هو خلوص عربية المتكلم من الخطأ واللحن والعجمة وغيرها مما قد يشوبها أو يشينها بالإضافة إلى طلاقة اللسان وسلامة النطق. وقيل أيضاً: فصح بمعنى جادت لغته حتى لا يلحن. وفي هذا دلالة أخرى على جودة كلام المرء لما تقتضيه من خلوص ونقاء. أما المعنى الاصطلاحي فيتعلق بالإبانة والوضوح والظهور. كما أن المعنى الاصطلاحي للفصاحة مرّ بمرحلتين:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة النشأة التي بدأت ملامحها في الظهور على يد أبي عثمان الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥هـ)، واستخدمت فيها الفصاحة والبلاغة بمدلولها اللغوي الذي جعل الفصاحة والبلاغة بمعنى واحد. وهذا هو ما سُمي باختلاط مفهوم المصطلحين واستخدامهما بمدلول واحد.

المرحلة الثانية: وتبدأ على الأغلب في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري على يد أبي هلال العسكري مؤلف كتاب الصناعتين (المتوفى سنة ٣٩٥هـ): إذ يفرق أبو هلال بين مفهومي المصطلحين، فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف أصلاهما؛ لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له».

ولكن أبا هلال يعود فيقرّر أن الفصاحة تتضمن اللفظ، والبلاغة تختص بالمعنى، «وعلى هذا تكون الفصاحة والبلاغة مختلفتين، وذلك أنّ الفصاحة تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللفظ؛ لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى: «وقد يجوز مع هذا أن يسمى الكلام الواحد فصيحاً بليغاً إذا كان واضح المعنى، سهل اللفظ، جيد السبّك، غير مستكره ولا فجّ، ولا متكلف، ولا يمنعه من أحد الاسمين شيء لما فيه من إيضاح المعنى وتقويم الحروف».

المقالُ الثامِن:

يقولُ امرؤ القيس في حبيبته:

تصُدُّ وتبدى عن أسيلٍ وتتقي بناظرةٍ من وَحْشِ وَجْرَةَ مُطفِلِ

انظر (بارك الله فيك) إلى هذا البيت، وتأمل ما فيه من حُسْنٍ وجمال، أستطيع أن أكتب كتاباً كامِلا في حسنه ومعانيه الراقية وإيجازه وبيانه وبلاغته، لكن دعني أحدِّثك عن بعض معاني مفرداته وجمال بيانه:

الصد والصدود: هو الإعراض، صد يصد، والصد هو الدفع والصرف، والإصداد هو الصد.

الابداء: الإظهار.

الأسالة: امتداد وطول الخد، أسل إسالة فهو أسيل.

الاتقاء: الحجز والفصل بين شيئين، اتقيته بالترس أى جعلت الترس حاجزا بيني وبينه

وجرة: اسم موضع، وحش وجرة أي وحش ذلك الموضع.

المطفل: التي لها أطفال.

الوحش: جمع وحشي، مثل زنج وزنجي، روم ورومي.

المعنى: إنها تعرض عنى فتظهر في إعراضها خدًا أسيلاً، وتستقبلني بعين ظبي ذات أطفال، وخصهن لنظرهن إلى أولادهن بالعطف والحب والحنان، وتكون أحسن تعبيرًا في تلك الحال.

التشبيه: شبهها في حسن عينيها بظبية مطفل، أو بمهاةٍ مطفل.

بيان: قوله: عن أسيل، أى عن خد أسيل، فحذف الموصوف لدلالة الصفة عليه، مثل قولك: مررت بمرح أى برجل مرح.

وقوله: من وحش وجرة، أى من نواظر وحش وجرة، فحذف المضاف وأقام

المضاف إليه مقامه، كقوله سبحانه وتعالى: « واسأل القرية « أى أهل القرية.

لكن الآن لنترك امرأ القيس على أن نعود إليه بعد أن نوضح أن نهج القرآن الكريم ونظمه (إذا صحت الكلمة)، وإخراجه ورصفه، وتأليفه ووصفه، وإبداعه ونسقه، تتيه العقول في حسنه، وتحار في بحره، ولن تصل شطه، ولن تدرك عمقه. فقد سماه الله عز وجل حكيمًا، وعظيمًا وكريمًا ومجيدًا، كما قال في محكم كتابه:

١ - ﴿**لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ فصلت (٤٢).

٢ - ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هُذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾ الحشر (٢١).

٣ - ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هُذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ الإسراء (٨٨).

يقولُ أهْلُ الكلامِ واللغةِ والأدب، أن البلاغة على عشرة أقسام، هى:

١ - **الايجاز**: وهو أن تأتى باللفظ القليل الشامل للمعنى الكثير مع عدم الإخلال بالمعنى، وهو قسمان، إيجاز بالحذف وإيجاز بالقصر

(أ) الإيجاز بالحذف: يكون بغرض التخفيف كقوله سبحانه: ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ**﴾ يوسف(٨٢). والأصل واسأل أهل القرية.

(ب) الإيجاز بالقصر:كقوله سبحانه: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾ البقرة (١٧٩).

٢ - **التشبيه**: مثل قوله سبحانه: ﴿**وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ**﴾ الأعراف (١٧١).

٣ - **الإستعارة**: لبيان التشبيه، مثل قوله سبحانه: ﴿**إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ**﴾ الحاقة (١١).

٤ - **التلاؤم**: وهو تعديل الحروف في النظم، وهو حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ، ووقع المعنى في القلب.

٥ - **الفواصل**: وهى حروف متشابهة في المقاطع وقد تقع على حروف متجانسة، كما قد تقع على حروف متقاربة ويقع بها إفهام المعاني وفيها بلاغة، وهى تابعة

للمعاني ليست كالسجع يتبعه المعنى.

٦ – **التجانس**: هو بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد، وهو على وجهين: مزاوجة ومناسبة.

المزاوجة: كقوله سبحانه وتعالى: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ**﴾ البقرة (١٩٤).

وقوله سبحانه: ﴿**وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ**﴾ آل عمران (٥٤).

وكقول عَمْرو بن كلثوم:

ألا سلا يَجْهلنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوقَ جَهْل الجاهلينا

وأما المناسبة فهي كقوله سبحانه وتعالى: ﴿**ثُمَّ انصَرَفُوا، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم**﴾ التوبة (١٢٧).

٧ – **التصريف**: وهو تصريف الكلام في المعاني، كتصريفه في الدلالات المختلفة، كتصريف «الملك» في معاني الصفات، فصُرِّفَ في معنى [مالك – ملك – ذو الملكوت – المليك...] وفي معنى التمليك [التملك – الإملاك –...] وتصريف المعنى في الدلالات المختلفة، كما كرر من قصة موسى في مواضع مختلفة [حيث ذكرت في سور: طه – الشعراء، وذلك لوجوه مختلفة من الحكمة].

٨ – **التضمين**: هو حصول معنى فيه من غير ذكره له باسم أو صفة هى عبارة عنه. تضمين توجبه البنية، كقولنا: معلوم يوجب انه لابد من عالم، وتضمين يوجبه معنى العبارة من حيث لا يصح إلا به، كالصفة بضارب، على مضروب وقاتل على مقتول.

وذكر: أنّ « بسم الله الرحمن الرحيم « من باب التضمين، لأنه تضمن تعليم الاستفتاح في الأمور باسمه على جهة التعظيم لله تبارك وتعالى، أو التبرك باسمه.

٩ – **المبالغة**: هي الدلالة على كثرة المعنى، وذلك على وجوه:

– قدر قادر ومنها قدير (فعيل)، غفر غافر ومنها غفار (فعال) شكر شاكر ومنها شكور (فعول)

– وقد يبالغ باللفظة التي هي صفة عامة كقوله سبحانه: ﴿**خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾

الزمر (٦٢).

١٠ – **حُسْنُ البيان**: ويقع على أربعة أقسام هي: كلام، حال، إشارة وعلامة.

بدأت سورة الرحمن بمدح الله للبيان، فيقول: ﴿**الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾ الرحمن (١-٤).

تنوَيه: البيان نقيضه العي، ومنه قيل: أعيا من باقِل، سُئل عن ظبية في يده، بكم اشتريتها ؟ فأرادَ أن يقول: بأحد عشر، فأشار بيديه مادًا أصابعه العشر، ثم أدلع لسانه، فأفلتت الظبية من يده، بين دهشته وضحكات الأعراب، فخرج لنا هذا المثل الظريف «أعيا من باقل».

القرآن الكريم، معجز بكامله، ولذلك قال سبحانه وتعالى في محكم التنزيل:

- ﴿**هُذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ**﴾ آل عمران (١٣٨).
- ﴿**تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾ النحل (٨٩).
- ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾ الشعراء (١٩٥).

يقول الباقلاني: القرآن أعلى منازل البيان، وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه، وطرقه وأبوابه، من تعديل النظم وسلامته، وحسنه وبهجته وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان، ووقوعه في النفس موقع القبول وتصوره تصور المشاهد وتشكله على جهته حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف، مما لا ينحصر حسنًا وبهجة وسناءً ورفعة (ص ٦٧٢).

المقالُ التاسعُ:

ذكرَ الجاحظُ في كتاب البيان والتبيين: أنه عندما سُئِلُ الفارسي عن البلاغةِ قال: هي معرفة الفَصْلِ من الوَصل.

وعندما سُئِلَ اليوناني عنها قال: هي تصحيح الأقسام، واختيار الكلام.

وعندما سُئِلَ الرومي عنها، قال: هي حُسْنُ الاقتضاب عند البَدَاهة، والغزارة يوم الإطالة.

وعندما سُئِلَ الهندي عنها، قال: وضُوحُ الدلالةِ، وانتهازُ الفرصَةِ، وحُسْنُ الإشارة.

وقال أن جُمَاعَ البلاغة هو التماسُ حُسْنِ المَوْقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الخُرْق بما التبس من المعاني، أو غَمُضَ وشرُدَ مِنَ اللفظ، وزَيْنُ ذلك كله وبهاؤه وحلاوته وسناؤه أن تكونَ الشمائلُ موزونة، والألفاظ معدَّلة، واللهجة نقية، وأن لا يكلم سيد الأمة بكلام العامة، ويكون في قوله فضْلُ التصرف في كلِّ طبقة، وأن يدقق المعاني كلّ التدقيق، وأن ينقح الألفاظ كل التنقيح وأن يصفيها كل التصفية.

وقد عَرَّفَ أهْلُ البلاغة «البراعَة» بأنها: هي الحَذقُ بطريقة الكلام وتجويده، وقد قالوا عن الفصَاحَةِ بأنها: «جَزالة اللفظ مع حُسْن المَعْنى»، وقدْ قيلَ مَعْناها: الاقتدارُ على الإبانةِ عن المعاني الكامنةِ في النفوس، بعباراتٍ جليَّة، ومعان نقيَّة بهيَّة.

والآن بعد أن تكلمنا عن البلاغة والبديع، – دعنا صديقي العزيز– نرى بعضًا مما رآه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين قال: «إنَّ مِنَ البَيَان لسحْرا»، دعني أكشف لك عن بعض السِحْر، لتعرف أن لغتنا الجميلة، كما قال شَاعِرُ النيل (حافظ إبراهيم) على لسانهَا:

أنا البَحْرُ في أحْشائِهِ الدرُّ كامِنُ فهل ساءلوا الغواصَ عن صَدَفاتِي

انظر بارك الله فيك إلى مطلع معلقة أمريء القيس وهو يقول:

قفا نبْكِ من ذِكرى حَبيبٍ ومنزلِ بسِقطِ اللِّوى بَيْنَ الدَّخولِ فحَوْمَلِ

إنك تجد أنَّ امرأ القيس وقفَ واستوقفَ، وبكى واستبكى، وذكر العهد والحنين، والمنزل وموقعه، والحبيبَ وذكرياته، وألم العشق ولوعته، وتوجع واستوجع في بيتٍ واحِد.

تنويه: الفارس مرتبط بسيفه وفرسه، وتوجد علاقة قوية بين ثلاثتهم، وكما صرح عنترة بعلاقته بفرسه، وهو يقول:

فازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ القنا بِلبانِهِ وشكا إلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ
لوْ كانَ يَدْري ما المُحاوَرَةُ اشتكى ولكانَ لوْ عَلِمَ الكلامَ مُكَلَّمي

وكما قال ابن خفاجه في قصيدة الجبل، يقول عن جاره:

ولا جار إلا من حسامٍ مُهنَّدْ ولا دارَ إلا من قتودِ الركائِبِ

لذلك كان من الطبيعي أن يخاطب امرؤ القيس فرسه وسيفه وهما صديقاه اللصيقان، ويقول لهما: قفا نبك.

وقد قيل خاطب صاحبيه، وقيل خاطب واحدا وأخرج الكلامَ مخرج الخطاب مع الاثنين، لأن العرب من عادتهم إجراء خطاب الاثنين على الواحد، ومن ذلك قول الشاعر:

فإن تزجراني يا ابن عفَّان أنزجر وإن ترعياني أحمِ عرضا ممنعا

* معاني الكلمات:
السقط: منقطع الرمل، حيث يستدق من طرفه، وهو أيضا ما يتطاير من النار، وهو كذلك المولود لغير تمام وهو (سَقط، سِقط،و سُقط)
اللوى: رمل يعوج ويلتوى، وقيل اسم مكان.
الدخول وحومل: موضعان
* المعنى: قفا نذكر ونبكى أياما خالية مع الحبيبة ومنزلها، بمنقطع رمل سقط اللوى بين الدخول وحومل.
* التصريع: العَروض هنا: ومنزِلِي على وزن مفاعلن / / ٠ / / ٠

الضرب هنا: فحوملى على وزن مفاعلن // ٠// ٠

التصريع هو أن يجانس الشاعر بين شطري البيت الواحد في مطلع القصيدة أي يجعل العَروض كالضرب وزناً وقافية، والقافية كما عرفها الخليل ابن احمد الفراهيدي « تبدأ مع أول متحرك قبل آخر ساكنين وهى هنا حَوْمَلي.

* المعلقة من بحر الطويل، وقد قال فيه صفى الدين الحلي:

طويلٌ له دون البحور فضائلٌ فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

عروض الطويل: لا تستعمل تامة حيث يحذف الحرف الخامس فتصير مفاعيلن مفاعلن // ٠// ٠.

ضرب الطويل: قد تكون مقبوضة في قصيدة، أو غير مقبوضة في أخرى

حشو البيت: يحدث فيه تغيير اختياري حيث تصير فعولن فعول.

تقطيع الشطر الأول:

قف نبك من ذكرى حبيب ومنزلِ

قفا نبْ كمن ذكْ را حبيْ بنْ ومنْ زلِيْ

// ٠/ ٠// ٠/٠/٠// ٠/٠// ٠//٠//٠

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

تقطيع الشطر الثانى:

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

بسقطلْ لوابينلـ دخولى فحوملى

// ٠/٠// ٠/٠/٠// ٠/٠// ٠//٠//٠

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

فيكون البيت:

// ٠/٠// ٠/ ٠/٠// ٠/٠// ٠//٠// // ٠/٠/٠// ٠/٠// ٠/٠// ٠//٠//

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

المقالُ العاشرُ:

انظر بارك الله فيك إلى هذين البيتين من معلقة أمريء القيس:

دَرِيرٍ كخذْروفِ الوَليدِ أمَـرَّه تتابُعُ كَفَّيه بخيْطٍ مُوَصَلِ
وَرُحْنا يكادُ الطرْفُ يَقْصُرُ دونهُ مَتى ما ترَقَّ العَيْنُ فيهِ تسَفَّلِ

البيت الأول اكتشفت سحره وعبقريته أثناء دراستي لقوانين الاحتكاك بالمرحلة الجامعية، أما البيت الثاني فقد اكتشفت سحرَ بيانه ودرره فيم بعد.

لننظر إلى البيت الأول:

دَرَّ يَدُرُّ فهو دريرٍ، على وزن فعيل، ويأتي وزن فعيل بمعنى الفاعل، فهو يدر السرعة ويديمها.

الخذروف: جمعه خذاريف، وهو قطعة من المعدن أو الخشب بها ثقبان متجاوران، يدخل الصبيُّ بهما الخيط ويتابع الشد بعد أن يلف الخذروف في أحد الاتجاهات لفات عديدة، ثم يتابع بكفيه الجذب والارخاء فيدور الخذروف وتزداد سرعته في تتابع انسيابى جميل.

المعنى: فرس امرىء القيس يدر العدو والسرعة ويديمهما تواصلا وتتابعا ويتسارع كخذروف الصبى.

السحر والبيان: يكمن السحر في هذا البيت في كلمة «بخيطٍ مُوَصَّل» حيث إن الخيط الموصل تم استخدامه فترة طويلة فأصبح ناعما أملسَ يسمح بازدياَد ومضاعفة السرعة، حيث تنعدم في هذه الحال قوة الاحتكاك، فالخيط الجديد يقاوم الحركة ومع استمرار الاستخدام والتوصيل تسمح الملاسة بانسياب الحركة دون مقاومة فتزداد السرعة

البيت الثاني:

ورحنا يكادُ الطرفُ يقصُرُ دونه جر **مَتى ما ترَقَّ العينُ فيه تَسَفَّلِ**

الطرف: اسم لما يتحرك من أشفار العين، طرف يطرف، وهو أيضا البصر.
القصور: قصر يقصر، والقصور هو العجز.
رقى: رقى يرقى أي ارتفع، الترقي والارتقاء والرقى هو الارتفاع.
تسفل أي تتسفل، وهو عكس الترقى.
المعنى: تكاد العيون تعجز عن تغطية حسن وجمال فرس امرىء القيس، والاحاطة بمحاسن خلقه ومتى ما ترقت العين في أعالى خلقه يجذبها جمال قوائمه، فهو كامل الحسن، رائع الصورة، تكاد العيون تقصر عن كنه حسنه.

الجمال وسحر البيان: إن العين الواحدة تعجز عن أن تحيط بجمال فرس أمريء القيس، فهو يحتاج لأكثر من عين لتغطية جماله.

وقد قالَ لي أحَدُ المُهتمينَ بالأدَبِ: عندَما نغوص وننقب عن الأصداف والدرر سيقابلنا كثيرٌ من الأحجار الغير مرغَوب فيها، ليتك تحدثنا عن بعضها، قبل الخوض إلى الأعماق، قلت له إن معظم الآراء نسبية وترجع لاجتهاد شخصي، لكن دعوني أذكركم بالبعض منها:
١ – أنشدَ جريرُ بَعْضَ خلفاءِ بني أميَّة، قصيدته التي يقول فيها:

بانَ الخليطُ برامتين فودَّعوا أوَ كلما جَدُّوا لبين تجْزَعُ
كيفَ العَزاءُ ولمْ أجدْ مُذْ بنتمُ قلباً يَقر ولا شراباً يَنْفَعُ
وتقولُ بَوْزَعُ قدْ دببتَ على العَصا هلاَّ هزئتِ بغيرنا يا بوزَعُ

لم يعجب الحضور من بنى أمية اسم الحبيبة «بوزع» وقالوا: أفسدت شعرك بهذا الإسم.

بالطبع قد وضع جرير اسم حبيبته في أحسن موضع، وقال كلاما غاية في الجمال والإبداع، ولكنهم خسفوه حقه، وسخروا من اسم حبيبته، مع العلم بأن بوزع لا تقل حسنا عن الخنساء قريبتهم وكبيرتهم، كما أنهم يسمون صخرا وسفيانَ وحنظل وتأبط شرا.

انظر إلى قوله: « هلا هزئت بغيرنا يا بوزعُ «انه منتهى الرِّقة في عتابِ الأحِبة، فهو

لا يستحق منها التهكم ولا السخرية، بعدما هدَّه حبها.

٢ – قال البحتري:

أهْـلا بذلكمُ الخَـيَالِ المُقـبِلِ فـعَلَ الذي نَـهْوَاه أو لَمْ يَفعَلِ
بَرْقٌ سَرى ببطنِ وَجْرَةَ فاهتدَت بسَناهُ أعْـناقُ الركابِ الضللِ

هل هناك صديقي العزيز ما هو أجمل أو أرق من هذين البيتين؟! لكن الباقلاني يقول عن البيت الأول: في قوله «ذلكم الخيال «ثقل روح وتطويل وحشو، وأنا أراه ظلم البحتري كل الظلم، أو على الأقل لم يرتفع إلى مستوى البحتري فيفهمه، ثم يعقب الباقلاني قائلا: وعذوبة الشعر تذهب بزيادة حرف أو نقص حرف، وتعود ملامحه بذلك ملوحة وفصاحته عيّا وبراعته تكلفا وسلاسته تعسفا والعجيب أن الباقلانى يزيد (ص ٢٢٠ إعجاز القرآن) ويقول: ثم قوله: «فعل الذي نهواه أو لم يفعل» ليست بكلمة رشيقة ولا لفظة طريفة « وأنت معي بالطبع – صديقي العزيز – أنَّ هذا ظلم بين.

٣ – رغم قولهم أن أجمل الشعر أكذبه، إلا أن أشعر الشعر، كما يقول زهير (ويروى أيضا لحسان):

وإنَّ أشعَرَ بيتٍ أنتَ قائلهُ بَيْتٌ يُقالُ إذا أنشدته صَدَقَـا

٤ – سمع سيدنا رسول الله ﷺ قول طرفة:

ستبدى لك الأيامُ ما كنتَ جاهِلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فقال: هذا من كلام النبوة.

٥ – قال عمر بن الخطاب للوفد الذي قدم من غطفان: من الذي يقول:

أتيتك عاريـــًا خلقـــًا ثيـــابي على وجـــل تظن بي الظنونَ
فألفيْتُ الأمـــانة لم تخنـــها كذلك كان نـــوحُ لا يَخـــونَ

قالوا: هو النابغة، قال: هو أشعر شعرائكم.

٦ – عاب الأصمعي على النابغة، أمام الرشيد قوله:

نظرت إليك، بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود

عابه لذكره كلمة « السقيم «، وبالطبع هذا ظلم بين، وقد بخسه حقه، لأن ذي الحاجة الصادق يبدو دائما كالسقيم، وهو بيت في غاية الروعة.

٧ – أما ما أجمع عليه النقاد هو قول نصيب:

أهيمُ بدَعْدٍ ما حَييتُ وإن أمُتْ أوكل بدَعْدٍ من يَهيمُ بها بَعْدِى

وهذا البيت لا ريب يوضح نوعًا من الحب الصوفي، بعيدًا عن الامتلاك، فالمحب عند وصوله في حبه درجة سامية يذوب في الكون وتفقد شهوة الامتلاك قيمتها، ويتحد مع الكون، وكل من هاجم نصيب في بيته ونيته لم يفهم نصيب، الذي فكر في تأمين دَعدٍ بعدَ وفاته.

٨ – تناقض المعاني:

قال امرؤ القيس:

فلو أنّ ما أسعى لأدْنى معيشةْ كفَاني ولم أطلبْ قليلا من المالِ
ولكـنما أسْعى لمجدٍ مُؤثّلٍ وقدْ يُدْركُ المجدّ المؤثلَ أمثالى

ثم قال في موضع آخر:

فتمـــلأ بَيْتنا أقِـطا وسَـــمْنا وحَسْـبُكَ مِنْ غِنى شِبْعٌ وريٌّ

المجد المؤثل: أى الثابت.
الأقط: وهو اللبن الرائب.
المعنيان في الأبيات غير متناقضين، كل ما هنالك أنه زاد في أحدهما زيادة لا تنقض

ما في الآخر، حيث وصف نفسه في الموضع الأول بسمو الهمة والسعي للمجد، وأطرى في الموضع الآخر القناعة والاكتفاء بالشبع والري، لكننا نجد البعض يعيب الشاعر ويعتقد وجود تناقض بالمعنيين، ولو تصفح قول امريء القيس جيدا، ما وجد أي تناقض.

٩ – سوء فهم الصيغ البيانية:

كثيرا ما نقرأ عن تداخل المعاني الدال عليها الشعر، وجماع الوصف أن يكون المعنى مطابقا للغرض المقصود، من مدح، وهجاء،و نسيب، ووصف، وتشبيه أو رثاء.

عاب بعض النقاد، قولَ مهلهل بن ربيعة:

فلولا الريحُ أسمع من بحجرٍ صليلَ البيض تقرَعُ بالذكور

مهلهل: من قدامى الشعراء الجاهليين وهو خال أمريء القيس.
صليل البيض: صوت طنين السيوف.
الذكور: السيوف ذات الحديد الصلد.
حجر: موضع (مكان مدينة الرياض الآن).

قد تكون المسافة بين الرياض وحجر طويلة، بحيث أن الصوت لا يصل، ولكنها كناية عن شدة الصوت، أي عيب هنا ؟ لكننا نجد أن البعض يعارض من أجل المعارضة فقط.

وقد تكرر ذلك في مواضع عديدة، كما حدث من طعن النابغة على حسان بن ثابت رضى الله عنه، في قوله:

لنا الجفناتُ الغرُّ يلمعن بالضُحى وأسيافنا يقطرن من نجدةٍ دما

الجفنات: جمع جفنة، وهى القصعة، تجمع أيضا على جفان.
الغر: البيض.
يلمعن: يُشرِقنَ.
النجدة: الشَجاعة.

حيث يطعنون على حَسّان في قوله: «الغر» وكان ممكناً أن يقول البيض، لأن الغرة بياض قليل في لون آخرغيره، وقالوا: فلو أنه قال «البيض» لكان أكثر من الغرة، وفي قوله «يلمعن بالضحى» ولو قال بالدجى لكان أحسن، وفى قوله «وأسيافنا يقطرن من نجدة دما» قالوا: ولو قال: «يجرين» لكان أحسن.

وقد وافقتهم في اعتراضهم أول الأمر، ثم تداركت الموافقة بعد قراءتي لتحليل قدامة في كتابه (نقد الشعر ص ٩٣) حيث يقول:

حسان لم يرد بقوله « الغر» أن يجعل الجفان بيضًا، لكنه أراد المشهورات، كما يقال «يوم أغر» و«يد غراء»، وأما قوله «يلمعن بالضحى» ليس يكاد يلمع بالنهار إلا الشيء الساطع فأما الليل فأكثر الأشياء مما له أدنى نور وأيسر بصيص يلمع فيه، وأما قول النابغة «يجرين» خير من قوله «يقطرن» لأن الجرى أكثر من القطر ولم يرد حسان الكثرة، وإنما قصد ما يقوله الناس من أن سيفه يقطر دما.

المقال الحادي عشر:

أثناءَ قراءتي لمعلقة عمرو بن كلثوم، وجدتها تحكى عن أحوال مشابهة لحالنا بمصر، على الرغم من أنها كتبت منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة، والعجيب أنه وضع في أولها بيتاً قد بنى عليه فلسفته وبطولته، حيث يقول:

وأنَّا سَوْفَ تدْركنا المَنايا مُقدَّرةً لنـا ومُقدِّرينـا

المعنى: المنايا جمع المنية وهى الموت، حيث سيدركنا المَوْتُ فهو مقدر لنا وقدِّرنا له.

ما وراء المعنى: مادام الموتُ نهاية حَتمية، لذا دعونا نموت شرفاء، بكبرياء وأنفة، في سبيل الوطن.

الفلسفة: كتب هذا الكلام منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة، فهل نحن الآن بنفس الدرجة من الشهامة والأنفة والكبرياء أم أصابنا الخورُ والوَهَن؟!!

ثم يقول عمرو بن كلثوم:

قفي قبلَ التفرّقِ يا ظعينا نُخبِّرْكِ اليقينَ وتخبرينا

المعنى: الظعينة هى المرأة في الهوْدَجِ، وقد تستعار لمخاطبة الوطن.

الفلسفة: أيتها البلدة الراحلة إلى المجهول، قفي قليلا حتى نخبرك بما قاسينا بعدك وتخبرينا بما أصابك من تفرق وتشرزم وفساد وألم ؟

ثم يقول عمرو بن كلثوم:

وإن غدًا وإن اليومَ رَهْنٌ وَبَعْدَ غَدٍ بما لا تعْلمينا

المعنى: إنَّ الأيامَ رَهْنٌ بما لا يحيط علمك به، أى ملازمة له، فإن الخونة الأنانيون سيذهبون بك إلى مالا تحمد عقباه.

ثم يقول:

وأيـامٍ لـنا غُـرٍ طـوالٍ عَصَينا المَلكَ فيها أن ندينا

المعنى: دعينا نخبرك بوقائع لنا، وأيام بيض زاهرة، ومواقفَ للشبابِ، أطاحوا

فيها بالطاغية وخلعوه، بعد إهماله لنا واستهتاره بنا.

ثم يقول عمرو بن كلثوم:

وسيِّدِ مَعْشرٍ قـدْ توَّجوهُ بتاج المُلكِ يَحْمى المَحْجَرينا

المحجرين أي اللاجئين، أحْجَرْته أي ألجأته.

المعنى: رُبَّ رئيس انتخبناه وتوجناه،أضحى يمكِّن لعشيرتِهِ وأهله، قهرناه، بعدَ أن استهتر بنا، فليتعظْ غيره به.

ثم يكمل عمرو بن كلثوم:

وَقدْ هَرَّتْ كلابُ الحَيِّ مِنَّا وشذَّبنا قتادَةَ مَنْ يَلـينا

القتـاد: شجَرٌ ذو شوكٍ، الواحدة قتادَه.

التشذيب: التخلص من الأشواك والأغصان الزائدة.

يلينا: أي يقرب منا.

المعنى: لقد تسلحنا، حتى هابنا كلُّ الخونةِ، وقد كسرنا شوكة من يقرب منا من العملاء، حتى نصل بالوطن إلى برِّ الأمان إن شاء الله.

ثم يقول:

مَتى ننقل إلى قوْمٍ رحانا يكونوا في اللقاءِ لها طحينا

استعار للحرب اسم الرحى واستعار لقتلاها اسم الطحين.

والمعنى هو: متى دخل شباب ثورتنا حرباً كسبوها.

نزلتم منزلَ الأضْيافِ منَّا فأعجلنا القرى أن تشتمونا

أى رحبنا بكم، وسيدناكم، وأكرمناكم، فانقلبتم علينا، فطردناكم.

ألا لا يَجْهَلنْ أحَدٌ عَلينا فنَجْهَل فَوْقَ جَهْلِ الجاهِلينَا

نجازى السفاهة بأكثر منها، وقد سمَّى جزاءَ الجَهْل جَهْلا، لازدواجِ الكلام،

وحسن تجانس اللفظ، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿الله يستهزىء بهم﴾، وقوله سبحانه: ﴿وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها﴾ ومثل قوله جلَّ شأنه: «ومكروا ومكر الله» وقوله سبحانه: ﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾. سمى جزاء الاستهزاء والسيئة والمكر والخداع، استهزاء وسيئة ومكر وخداع.

فإنَّ قناتنا يا عمرو أعْيَتْ على الأعداءِ قبلكَ أن تلينا

عمرو ابن هند، هنا الطامع فينا.
قناتنا: كرامتنا.
كل من حاول النيل من كرامتنا، دفع الثمن غاليا لأننا:

ونحن الحاكمون إذا أطعنا ونحن العازمون إذا عَصينا

ونحن التاركون لِما سخطنا.... ونحن الآخذون لما رضينا
وبالطبع قد علمت دول الجوار:

بأنا المطعمونَ إذا قدرنا وأنا المهلكون إذا ابتلينا
وأنا المانعون لما أردنا وأنا النازلون بحيث شينا

ثم يكمل عمرو بن كلثوم:

إذا ما الملكُ سامَ الناسَ خَسْفا أبينا أنْ نُقِرَّ الذلَّ فينا

الخسف: بفتح الخاء وضمها، أى الذل.
السوم: أن تجشمَّ انساناً مشقة وشراً.
يقال: سامه خسفاً: أى حَمَّله وكلفه ما فيه ذله.

ما وراء المعنى:

إذا أكره الرئيسُ الشعبَ على ما فيه ذل خلعوه، فمن العار والشنار أن يساهم البعضُ في صناعَة فرعوْن جديد، كما كان مِن العار أن يقوم الإعلام بدور مشبوه لا يليق بمصر وحضارتها أثناء الاستفتاء.

المقالُ الثاني عَشر:

ما هو رأيك – صديقي العزيز – في هذا البيت لقيس بن الخطيم:

إذا أنت لم تنفع فضُرَّ، فإنما يُرَجَّى الفتى كيما يضرَّ وينفعا

أتيت لك بهذا البيت من أجل المحسنات البديعية والطباق، فذكرني ببيتين آخرين، هما:

١ – البيت الأول لزهير، يقول:

ومنْ لمْ يَذدْ عَنْ حَوْضِهِ بسِلاحِهِ يُهَدَم ومَنْ لمْ يظلم الناسَ يُظلمِ

٢ – البيت الثاني لعمر بن أبي ربيعة، يقول:

ليت هند أنجزتنا ما تعد وشفَتْ أنفسنا مما تجد
واستبدَّت مَرَّةً واحِدَة إنَّما العاجزُ من لا يَسْتبد

ولنا – أخي العزيز – أن نطابق الثلاثة أبيات على واقعنا المُعاش لنرى هل ونحن في القرن الواحد والعشرين مازلنا نعيش في العصر الجاهلي ؟

هل تلاحظ يا أخي العزيز، أن من يضرون بمصرَ يضرونها بالقانون وبالدستور، وأن وزير داخليتنا لم يَطلبْ أحَدٌ مُحَاكمته على تقصيره في حفظ الأمن وعجزه عن حماية مديريات وأقسام الشرطة !!

هل تلاحظ يا أخي العزيز، أن قضاءنا الشامخ ارتكب من الظلم مالا يصدقه عقل ولا يقبله ضمير.

هل تلاحظ يا أخي العزيز، أن مظلة الإعلام الكاذب، غير الأمين ساهمت في ترسيخ الاستبداد في مصر الحديثة.

إذن نحن مازلنا نعيش في العصر الجاهلي.

دعونا نرجع للغتنا الجميلة، وبلاغتها، فقد عرف بعض أهل اللغة المطابقة أو الطباق بأنه ذكر الشيء وضده، كالليل والنهار، والسواد والبياض، ومن الأمثلة على ذلك:

١ – قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ولكم في القصاص حياة**﴾ البقرة (١٧٩)
٢ – ﴿**يُخرج الحَيَّ من الميت ويُخرجُ الميتَ من الحيّ**﴾ الروم (١٩).
٣ – وقال النبي عليه الصلاة والسلام للأنصار: «إنكم تكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع».

ومثله قول السموأل:

وما ضرنا أنا قليلٌ وجارُنا عزيز وجار الأكثرين ذليلُ

لكن البعض الآخر من أهل اللغة عَرَّفوا الطباق بقولهم: هو أن يشترك معنيان بلفظة واحدة، مثل قول الأفوه الأودى:

وأقطعُ الهَوْجَلَ مُسْتأنِسًا بهَوْجَلٍ مُسْتأنسٍ عَنْتريس

عنى بالهوجل الأول الأرض، وبالثاني الناقة، ثم سُمى ذلك جناسا.

قال سيدنا رسول الله ﷺ: «أوتيت مجامع الكلم»، فمن أقواله:

١ – «**إنَّ ممَّا يُنْبت الربيعُ ما يَقْتُل حَبَطاً أو يُلِمُّ**».

الحبط: اكثار الماشية للأكل وسط العُشب، حتى تمتليء بطونها دون إخراجٍ.

أو يُلِّم: أي يمرض ويقترب من الموتَ.

المعنى: تأكلُ الأنعامُ عندَ الوفرَةِ والربيع بنهم وحرص وإفراط، فتنتفخ بطونها وتموت، وضرب هذا المثل لتشبيه من يجمع الدُنيا ويحرصُ عليها ويبخل بما جمع حتى يمنع الحقوق فيهلك في الآخرة بدخوله جهنم ووجوب العذاب.

٢ – «**وهل يَكبُ الناسَ على مَناخرهم في نار جهنم إلا حصائدَ ألسنتهم**».

حصائد: مفردها حصيدة. حصائد الألسنة: أى ما قالته الألسنة، وهو ما يقتطعونه من كلام لا خير فيه.

التشبيه: شبَّه سيدنا رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم، ما تقوله السنتنا بما يحصد من الزرع إذا جُذَّ، وشبَّه اللسانَ وما يقتطعه من القول بحد مِنجَلِ الحصاد.

٣ – «**الناسُ كإبلٍ مئة، لا تجد فيها راحلة**».

الراحلة: هي كل بعير نجيب قوى، جاهز للأسفار والأحمال والأعمال الشاقة، وهو تام الخلق، حسن المنظر.

المعنى: شبه سيدنا رسول الله، الكامل في الخير والزهد والتقوى وخشية الله، بالراحلة النجيبة، وهى نادرة في الإبل الكثيرة.

٤ – وقد علمنا هذا الدعاء الجميل على ما فيه من مجاز واستعارة: «**رَبَّنا تقبَّلْ تَوْبتي، واغسِلْ حَوبتي**».

الحَوْبَة: والحوب أى المأثم.

المراد: لما كانت المعصية كالدرن الذي يصيب الإنسان فيفحش أثره، ويقبح منظره، أقام عليه الصلاة والسلام إماطة وزرها، وإسقاط إثمها مقام غسل الأدران وإماطة الأدناس، لأن الإنسانَ يعودُ بعدَها نقى الأثوابِ طاهرًا نقيًّا.

والآن إذا طلبنَا منْ إحْدَى طالبات كلية الفنون الجميلة، أن تصفَ شَعْرَها، فماذا ستكتب، مع العلم أَن شعر البنت هو تاجها وزينتها وسر جمالها، لكن دعونا نقول أنها ستصف حريريته ونعومته ولونه وضفائره وخصلاته وتداخل عُقصه، وذيلَ حُصَانه وقصَّته، وقد تصف شاعريته وتطايره ومداعبة الهواء له وسحر جمَاله، وكما قال (حليم) عَلَى الخدود يهفهف ويرجع يطير.

لكن إذا طلبنا من طالبة شاعِرَة كتابة بيتين مِنَ الشعْر عَن شَعْرِها، بالتأكيد ستكون المهمة أكثر صعوبة، لِذا دعونا نرى ماذا كتب امرؤ القيس عَنْ شَعْرِ حَبيبتِهِ فاطِم. قال امرؤ القيس:

وَفرْعٍ يَزينُ المَتْنَ أَسْوَدَ فاحِمٍ أثيثٍ كقِنْوِ النخْلةِ المُتعَثْكِلِ
غدائرُهُ مُسْتَشْزِراتٌ إلى العلاَ تَضِلُّ العِقاصُ في مُثَنَّى وَمُرْسَلِ

الفرع: هو الشعر الغزير، والفرع من كل شيء هو أعلاه، يقال رجل أفرع وامرأة فرعاء.

الفاحم: الشديد السواد، وقد اشتق من الفحم، ونقول هو فاحم بيِّن الفحومة.

الأثيث: الكثير، الأثاثة هى الكثرة، أثَّ الشعر أى غزر وطال.

القنو: جمعه أقناء والقنوان، والقنو هو الغِدْقُ بما فيه من الرطب، ونحن بمصر نقول سُباطة وهى عرجون النخل يكون فيه ثمره، وسَبُط سُبوطاً أى استرسل شعره.

العثكول والعثكال قد يكونان بمعنى قطعة من القنو.

النخلة المتعثكلة: التى خرجت عثاكيلها أى قنواتها.

الغدائر: جمع الغديرة وهى الخصلة من الشعر.

الاستشزار: الارتفاع والرفع، والفعل منه يأتي لازماً ومتعدياً، فمن روى مستشزرات بكسر الزاى جعله من اللازم، ومن روى بفتح الزاى جعله من المتعدى.

العقيصة: الخصلة، وهى المجموعة من الشعر، والجمع عُقَص وعقائص وعقاص.

تضل من الضلال والضلالة (ضلَّ – يضل).

المعنى: تبدى عن شعر طويل تام غزير، يزين ظهرها إذا أرسلته عليه، ثم شبَّه ذوائبها بقنو نخلة خرجت قنواتها، والذوائب تشبه بالعناقيد، والقنوان يراد به تجعدها وأثاثتها.

كما أن ذوائبها وغدائرها مرفوعات ومرتفعات لأعلى، حيث شدَّت بخيوط، ثم يقول: تغيب تقاعيصها في شعر بعضه مثنى وبعضه مُرْسَل، أراد به غذارة شعرها، والتقعيص هو التجعيد.

المقالُ الثالثُ عَشر:

كُنتُ قدْ عَملتُ بمدينتي الأقصُر وأسْوان، وكنتُ عنْدَما أنظر إلى صَفحَة السماء ليلا، أرى أنَّ مَنظرَ النجوم مُتألقٌ لامع، وَصَفحَة السَماء نقية وكانَ يُخيَّل إلىَّ أنَّ حَجْمَ النجوم أكبَرُ في مصر العلَيا منه في الوجه البحري والدلتا، وكانتْ صَفحَة السَماء تختلفُ مِنْ وَقتٍ لآخر، وكنت أتفهم بيت أمريء القيس الذي يقول:

إذا مَا الثريَّا في السَمَاءِ تعَرَّضَتْ تَعَرُّضَ أثناءِ الوشاحِ المُفَصَّلِ

معاني الكلمات:

التعرض: الاستقبال، والتعرض إبداء العرض، وهو الناحية، والتعرض الأخذ في الذهاب عرضا.

الأثناء: النواحي، والأثناء الأوساط، واحدها ثنى مثل عصى وثنى مثل معى، وثنى بوزن فعل مثل نجى، وكذلك آناء بمعنى الأوقات والآلاء بمعنى النعم.

المفصل: الذي فصل بين خرزه بالذهب والعاج وغيره.

يقول: تجاوزت إليها في وقت إبداء الثريا عرضها في السماء كإبداء الوشاح الذي فصل بين جواهره وخرزه بالذهب أو غيره، عند رؤية نواحي كواكب الثريا في الأفق الشرقي، وقدْ تشابهتْ نواحيها بنواحي جواهر الوشاح، وقد قال البعضُ: أنه شبه كواكب الثريا بجواهر الوشاح لأن الثريا تأخذ وسط السماء كما أن الوشاح يأخذ وسط المرأة المتوشحة، وقال بعضهم: إنما تَعْرُضُ أوّلَ ما تَطْلُع وحين تغرُبُ، كما أن الوشاحَ إذا طُرحَ يَلقاكَ بعُرْضه، وهو ناحيته، وقد زعم بعض العلماء أنه أرادَ الجَوْزاء فاستعاض عنها بالثريا لأنَ التعرض للجوزاء دون الثريا، وقال بعضهم في تعرض الثريا أنها إذا بلغت كبد السماء أخذت في العرض ذاهبة ساعة كما أن الوشاح يقع مائلا إلى أحد شقي المتوشحة به.

وقد وصف كثير من المتقدمين الثريا في تعرضها، وكلٌّ أبدع في وصفه وأحسن، فمن ذلك قول ذي الرُّمَّة:

وَرَدْتُ اعْتِسافاً والثُّريا كأنها على قِمَّةِ الرَّأس ابنُ ماءٍ محلَّقُ

ومن ذلك قول ابن المعتز:

وترى الثريا في السماءِ كأنها بَيْضاتُ أُدحيٍّ يَلُحْنَ بفدْفدِ

وكقول الأشهب بن رُميلة:

ولاحَتْ لِساريها الثُّريا كأنها لدَى الأفق الغربي فُرْطُ مُسَلسَلُ

ولابن الطثرية:

إذا ما الثريا في السماء كأنها جُمانُ وهى مِنْ سِلكِهِ فتبَدَّدَا

أَثناءَ رحْلة أمريء القيس وهو يتأهب للأخذ بثأر أبيه، وهو متوجه إلى تيماء لمقابلة السموأَل، وكان قد أوشك على الانتهاء من كتابة معلقته، وقدْ أمطرت السماءُ عليه فوَصَفَ المَطرَ وأبدع الوَصْفَ، وترك لنا مصطلحات أدبية من أجمل وأروع ما جاء بالشعر العربي، وسأذكر لك – صديقي العزيز – بعضاً مما قاله:

أصَاحِ ترَى بَرْقاً أريكَ وَميضَهُ كلمْعِ اليدَيْنِ في حَبيٍّ مُكلَّلِ

حبي: السَحابُ المتراكم، سُمِّيَ بذلك لأنه حبا بعضه إلى بعض فتراكم، وعندما يَحْبُ الطفل فهو يحمل على يديه وقدميه وركبتيه ويبدأ بطيئا وكأنه ينوء بأحماله، كذلك السحاب المتراكم فهو يبدو وكأنه يَحْبُو فهو حَبي.

مكلل: بالفتح والكسر، جعله مكلّلا لأنه صار أعلاه كالإكليل.

كلمع اليدين: شبه لمعان البرق وتحركه بتحرك اليدين عند انعكاس باطنها للضوء.

يقولُ: يا صاحبي هل ترى برقاً أريك لمعانه وتلألؤه وتألقه في سحاب متراكم صار أعلاه كالإكليل لأسفله أو في سحاب متبسم بالبرق يشبه برقه تحريك اليدين.

ثم يقول امرؤ القيس:

على قطنٍ بالشيم أيْمَنُ صَوْبِهِ وأيْسَرَهُ على الستار فَيَذْبُلِ

قطن، الستار ويذبل: أسماء جبال.

الصَوْب: المطر، صابَ يصوبُ صَوْباً أي نزل من علو إلى أسفل.

الشيم: النظر إلى البرق مع ترقب المطر.

يقول: أيمن هذا السحاب على قطن وأيسره على الستار ويذبل، فهو يصف عظم السحاب وغزارته، وقوله بالشيم، أراد حكمه حدساً وتقديراً لأنه لا يرى ستار ويذبل وقطن معاً.

ثم يقول امرؤ القيس:

فأضحى يَسُحُّ الماءَ حَوْلَ كُتَيْفَةٍ يَكُبُّ على الأذْقانِ دَوْحَ الكنَهْبَلِ

الكبُّ: إلقاء الشيء على وجهه، كبَّ يكبُّ، والإكباب هو أن يخر الشيء على وجهه، والأذقان مستعار للشجر.

الدَوْحُ: جمع دوحة، والدوحة هي ضرب ونوع من شجر البادية.

يقول: فأضحى هذا الغيث أو السحاب يصب الماء فوق هذا الموضع المسمى كتيفة ويلقى الأشجار العظام من هذا الضرب الذي يسمى كنهبل على رؤوسها صباً، والمعنى أنّ سيل هذا الغيث ينصب من الجبال والآكام فيقلع الشجر العظام، ويسح الماء من كلِّ فيقة.

ثم يكمل امرؤ القيس:

وَمَرَّ على القنانِ مِنْ نفيانِهِ فأنْزَلَ منه العُصْمَ من كلِّ مَنْزِلِ

القنان: اسم جبل لبني أسد.

النفيان: ما يتطاير من قطر المطر وقطر الدلو ومن الرمل عند الوطء ومن الصوف عند النفش.

العُصْم: جمع أعصم، وهو الذي في إحدى يديه بياض من الوعل وغيرها، والمنزل موضع الإنزال.

المعنى: يقول ومر على هذا الجبل مما يتطاير وانتشر وتناثر من رشاش هذا الغيث فأنزل الأوعَالَ العُصْمَ من كلِّ مَوْضِع من هذا الجبل لهولها من وقع قطره على الجبل وفرط انصبابه.

عبقرية البيان: تتضح هنا عبقرية بلاغة وبيان أمريء القيس في قوله: «فأنزل منه العُصْمَ من كلِّ منزل».

وهذه العبقرية تكمن في أن الحيوانات القوية تتخذ من أعالي الجبال منازل تعصمها من أعدائها، وكلمة (عُصْم) تنطبق على كل حيوان اعتصم بأعالي الجبال وكهوفه، وسنرى ذلك في أبيات المقال التالي إن شاء الله.

المقالُ الرابعُ عشر:

اقترب امرؤ القيس في رحلته من مدينة تيماء، وقد أصابها المطر إصابة مباشرة، فقال:

وَتيْمَاءَ لَمْ يترك بها جذعَ نخلةٍ ولا أُطُماً إلا مَشيداً بجندَلِ

تيماء: المدينة التي يقصدها امرؤ القيس ويقطنها السموأل.

الجذع: جمعه أجذاع كذلك الجذوع.

الأطم: القصر، الجمع آطام.

الشيد: الجص، والشيد هو الرفع وعلو البنيان (شاد – يشيد).

الجندل: الصخر، جمعه الجنادل.

يقول: لم يترك هذا الغيث شيئاً من جذوع النخل بقرية تيما، ولا شيئاً من القصور والأبنية إلا ما كان منها مرفوعاً بالصخور والجص.

المعنى: قلع الغيث الأشجار وهدم الأبنية، إلا ما كان منها مرفوعاً بالحجارة، أو بالحجارة والجص.

ثم قال أمرؤ القيس:

كأن ثبيراً في عرانينِ وبلهِ كبيرُ أناسٍ في بجادٍ مُزَمَّلِ

ثبير: اسم جبل.

العرنين: الأنف

الوبل: جمع وابل وهو المطر الغزير العظيم القطر.

البجاد: الكساء المخطط، جمعه البجد.

التزميل: التلفيف بالثياب.

المعنى: كأن ثبيراً في أوائل مطر هذا السحاب سيد أناس قد تلفف بكساء مخطط.

التشبيه: شبه تغطية الجبل بالغثاء بتغطي رجل بالكساء.

ثم يقول:

كأنَّ ذُرَى رَأسِ المُجَيْمِرِ غُدْوَةً مِنَ السَيلِ والأغثاءِ فلكة مَغْزَلِ

الذروة: أعلى الشيء، والجمع الذرى.

المجيمر: أكمة بعينها.

الغُدْوَة: الغداةُ، ما بين الفجر وطلوع الشمس.

الغُثاء: ما جاء به السيلُ من الحشيش والشجر والكلأ والعوالق وغيرها، الجمع الأغثاء، كذلك الغُثاء هو ما يحمله السيل من رغوةٍ ومن فتات الأشياء.

المغزل: بضم الميم وفتحها وكسرها، والجمع مغازل.

فلكة: مفتوحة الفاء، وهى الجزء الذي يدور ويلف الخيط حوله، وهى القطعة المستديرة من الخشب ونحوه تجعل في أعلاه، وتثقبت الصنارة من فوقها وعود المغزل من تحتها.

يقول: كأن هذه الأكمة غدوة مما أحاط بها من أغثاء السيل فلكة مغزل.

التشبيه: شبه استدارة هذه الأكمة بما أحاط بها من الإغثاء باستدارة فلكة المغزل وإحاطتها بها بإحاطة المغزل.

لكن البيتين اللذين فتناني وسحرني بيانهما في مطلع شبابي هما:

كأن مكاكي الجواء غُدَيَةً صُبِحْنَ سُلافاً مِنْ رَحيقٍ مُفلفل
كأن السِباعَ فيهِ غرْقى عَشيَّةً بأرجائهِ القصوى أنابيشُ عُنْصُلِ

تمهيد: يهاجر شتاءً إلى مِصْرَ طائرٌ جميلٌ رشيقٌ ضمن الطيور المهاجرة، هو طائرُ « أبو فصاد»، يزدادُ نشاطه ووثباته وصدحه بعد هطول الأمطار كما ينتشر المُكاء، بين الصبية والطيور خصوصا بالريف، والمكاء ضرب من الطير يألف الريف ينتشر

شتاءً بين شمال أفريقيا وجزيرة العرب، يجمع يديه ثم يصفر فيهما صفيراً حسناً، والجمع..مكاكي

كأنَّ مَكاكيّ الجِواءِ غُدِيّةً صُبِحْنَ سُلافاً من رَحيقٍ مُفلفلِ

مَكا مُكاءَ: صَفَرَ بفيه، أو شبك بأصابع يديه ثم أدخلها في فيه ونفخ فيها، يقال: مكا الطائر. وفي القرآن الكريم: « وما كان صلاتهم عِندَ البَيْتِ إلا مُكاءَ وتصدية «.

الجواء: الواسع من الأودية، الجوُّ هو الفضاء بين السماء والأرض.وفي القرآن الكريم ﴿**ألم يروا إلى الطير مُسَخرات في جو السماء**﴾.

غُدية: تصغير غدوة أو غداة.

الصبح: سقى الصبوح، والاصطباح والتصبح هو شرب الصباح، وقد افتتح عمرو بن كلثوم معلقته، قائلا:

ألا هُبِّي بصحنِكِ فاصبحينا ولا تُبْقي خمورَ الأندَرينا

السلاف: أجود أنواع الخمر، وهو ما أخذ من العنب من غير عصر، حيث تنز حبات العنب ما بداخلها وكأنه رحيق الزهور.

المفلفل: الذي ألقى فيه الفلفل، والشراب المفلفل يحرك اللسان وتفتح الطير مناقيرها متسعة فيزداد صوتها شدوا وهو مع السكر يزيد نشاط الطير وتغريدها بحدة ألسنتها من حذي الشراب المفلفل إياها.

يقول: كأن طيور الوادي المغردة النشيطة سريعة الحركة سُقين سلافا وهو رحيق الأعناب الصافي وقد أضيف إليه فلفل حرك مناقيرها بنشاط زائد وصدح مدو.

ثم يقولُ أمْرؤ القيس:

كأنّ السباعَ فيهِ غَرْقى عَشِيَّةً بأرجائِهِ القُصوى أنابيشُ عُنْصُلِ

تنويه: ذكرنا من قبل عندما قال أمرؤ القيس: « فأنزلَ منه العُصْمَ من كلِّ

مَنزِل «، أنَّ الوعول الجبلية والحيوانات الضارية كالسباع تتخذ من كهوف الجبال وشقوقها وثناياها بيوتا لها، وكثيراً ما ينزل المطر الغزير ويسح عليها بسيله وهطله فتغرق بعض هذه الحيوانات في أرجائه القصوى، ولما كانت السباع هى الأقوى والأكثر شراسة، فهى تسكن أعلى الأماكن ونواحيها البعيدة، لذلك ربط بين السباع والأرجاء القصوى.

الغرقى: غرقى جمع غريق مثل مرضى ومريض، وجرحى وجريح.

العشي: والعشية ما بعد الزوال إلى طلوع الفجر، كذلك العشاء.

الأرجاء: النواحي، الواحد رجا، التثنية رجوان.

القصوى: والقصياء وهى تأنيث الأقصى وهو الأبعد.

الأنابيش: أصول النبت، سميت بذلك لأنه ينبش عنها، مفردها أنبوشة.

العنصل: البصل البري.

يقول امرؤ القيس:

حين غرقت السباع عشياً في سيول هذا المطر ظهرت وكأنها أصول البصل البرى، فقد شبه تلطخها بالطين والماء والكدر بأصول البصل البرى الذي اقتلعه السيل بالمثل، وكلاهما متلطخة بالطين والتراب.

المقالُ الخامسُ عشر:

قبل أن نتكلم عن الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم، دعونا نتحدث اليوم عن نقطتين هامتين، أولاهما تكلم فيها كثير من العلماء، وهى عن الإخبار عن الغيوب، والثانية عن إخبار القرآن عن قصص الأولين، ودعونا نذكر بعض الآيات الدالة على الإخبار عن الغيوب، وهى كثيرة، فمنها:

١ – ورد بسورة الفتح (١٦): ﴿**قُلْ للمخلفين من الأعْراب ستُدْعَوْنَ إلى قوْم أولى بأس شديد تُقاتلونهم أو يُسْلمون**﴾ وقد غزاهم أبو بكر وعمر، ثم انطلقا بهمً إلى قتال العرب والفرس والروم.

٢ – ورد بسورة الروم، (١-٤): ﴿**الم، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سَيَغْلِبون في بضع سنين**﴾ وراهن أبو بكر الصديق رضي الله عنه في ذلك، وصدق الله وعده.

٣ – ورد بسورة القمر (٤٥): ﴿**سَيُهْزَمُ الجَمْعُ ويُولونَ الدُّبُر**﴾ وهو ما حدث بالفعل بعد ذلك.

٤ – ورد بسورة الفتح (٤٥): ﴿**لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسَكم ومقصرين، لا تخافون**﴾ وهو ما تحقق بالفعل.

٥ – وقد قال القرآن الكريم في المخلفين: «**لن تخرجوا معىَ أبدا ولن تقاتلوا معىَ عدوا**» وقد تحقق ذلك، ولم يخرج من المنافقين الذين خوطبوا بتلك الآية أحد.

٦ – ورد في سورة التوبة (٢٣): ﴿**ليظهره على الدين كله**﴾ وقد تحقق ذلك في وقت قياسي.

النقطة الثانية، وهى إخبار القرآن الكريم عن قصص الأولين، وسير المتقدمين، ومن العجيب أن القرآن حكاها حكاية من شهدها وحضرها وعايشها، ومن ذلك:

١ – قوله، سبحانه وتعالى: ﴿**وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك، إذا لارتاب المبطلون**﴾ العنكبوت (٤٨).

٢ – وقوله، سبحانه وتعالى: ﴿**وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين**﴾. القصص (٤٤).

٣ – وقوله: ﴿**وما كنت بجانب الطور إذ ناديا، ولكن رحمة من ربك، لتنذر قوماً ما أتاهم من نذيرٍ من قبلك**﴾ القصص (٤٦).

٤ – وقوله، سبحانه وتعالى: ﴿**تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك، ما كنت تعلمها أنتَ ولا قوْمك من قبل هذا، فاصبر، إن العاقبة للمتقين**﴾. ص (٤٩).

وقبل أن نشرع في التحدث عن الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، وقد تحدثنا من قبل في نفى الشعر عنه، لكن هناك نقطة كان بها كثير من الخلاف بين أهل اللغة، وهى نفى السجع من القرآن الكريم، ولنبدأ بتعريف السجع، حيث قال أهل اللغة: هو موالاة الكلام على وزن واحد، وقال أحدهم: سجعت الحمامة، معناه رددت صوتها، كقول الشاعر:

طربْتَ فأبكتكَ الحَمَامُ السَوَاجعُ تميلُ بها ضَحْواً غصونُ نوائعُ

النوائع: الموائل، والجائع النائع هو المتمايل ضعفاً.

وقد نفى الشيخ أبو الحسن الأشعري السجع من القرآن الكريم، ولتلميذه ابن الباقلاني دفاعا شديدا في نفى السجع من القرآن الكري.

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن جاءوه وكلموه في شأن الجنين: كيف أغرم من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، أليس دَمُه لا يُطل ؟فقال: «أسَجْعاً كسجعِ الكهان» أي أنه رأى أن السجع مذمومًا.

وكَانت امرأتان من هذيل، رمت إحداهما الأخرى بحجر فطرحت جنينها ميتا، فقضى فيه النبي عليه الصلاة والسلام بغرة عبد أو أمة.

كيف أغرم: الغرم أداء شيء لازم.

ولا استهل: أي ولا صاح عند الولادة ليعرف به أنه مات بعد أن كان حيا.

فمثل ذلك لا يطل: أي يهدر ولا يضمن، يقال طل دمه إذا أهدر وطله الحاكم أي أهدره.

ومن السجع أيام الجاهلية، قول أبي طالب لسيف بن ذي يَزَن: « أنبتكَ مَنْبِتًا

طابت أرومَتُه، وعَزت جُرْثومته، وثبَت أصله، وبَسَقَ فرعُه، في أكرم مَوْطنٍ، وأطيب مَعْدن «. وبالطبع القرآن مخالف لهذه الطريقة.

ومما يُسْتدلُ به على أن القرآن الكريم به سجعٌ هو أن القرآن الكريم تحدث عن أنبياء الله موسى وهارون، ولمقام السجع، قيل في موضع «هرون وموسى» سورة طه (٧٠)، وقيل في موضع آخر «موسى وهرون» سورة الأعراف (١٢٢).

وجدير بالذكر أن الجناس تجلى بأجمل صوره فيما بعد مع بدايات العصر العباسي مع ظهور فن المقامات، ولنأخذ المقامة البغدادية كمثال على ذلك، قبل أن نعرض الآراء التي تنفى السجع من القرآن الكريم، ولنقم أولاً بتعريف المقامة.

المقامة: هي حكاية تقال في مقام معين، وتشتمل على الكثير من درر اللغة وفرائد الأدب، والحكم والأمثال والأشعار النادرة التي تدل على سعة الإطلاع على طريقة السجع ومما يشمل موسيقى عربية محببة مما يثير نشوة الطرب. هدف المقامة تعليمي، فهي درس لغوي نحوي عروضي بلاغي متكامل، كما تشتمل على بعض الألغاز وكيفية التصرف في المواقف العصيبة. بديع الزمان الهمذاني: هو من أدباء العصر العباسي (٩٦٩ م- ١٠٠٧ م)، له مجموعة من المقامات، أشهرها المقامة البغدادية، وقد حدثت ببغداد بالعراق، وأول من شرح مقاماته هو الأستاذ الشيخ محمد عبده.

المقامة البغدادية: اشتهيت الأزاذ وأنا ببغداذ، وليس معي عَقد على نقد، فخرجت انتهز مُحالة حتى أحلني الكرخ، فإذا أنا بسوادي يسوق بالجهد حماره، ويطرق بالعقد إذاره، فقلت: ظفرنا والله بصيد، وحياك الله أبا زيد، من أين أقبلت ؟وأين نزلت؟ ومتى وافيت؟ وهلم إلى البيت، فقال السوادي: لست بأبي زيد، ولكني أبو عبيد، فقلت: نعم، لعن الله الشيطان، وأبعد النسيان، أنسانيك طول العهد، واتصال البعد، فكيف حال أبيك ؟ أشاب كعهدي، أم شاب بعدي ؟، فقال قد نبت الربيعُ على دمنته، وأرجو أن يصيره الله إلى جنته، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ومددت يد البدار، إلى الصدار، أريد تمزيقه، فقبض السوادي على خصري يجمعه، وقال: ناشدتك بالله لا تقطعه، فقلت: هلم إلى البيت نصب غداءً، أو إلى السوق نشتر شواءً، والسوق أقرب وطعامه أطيب،فاستفزته حُمَّةُ القرَم، وعطفته عاطفة اللقم، وطمع ولم يعلم أنه وقع، ثم أتينا شوَّاءً يتقاطر

شواؤه عرقا، وتتسايلُ حوذاباته مرقًا، فقلت: افرز لأبي زيد من هذا الشواء، ثم زن له من تلك الحلواء، واخترله من تلك الأطباق، وانضد عليها أوراقَ الرقاق، ورش عليه شيئاً من ماء السماق، ليأكله أبو زيد هنيئاً، فانحنى الشواءُ بساطوره على زبدة تنوره، فجعلها كالكحل سحقاً، وكالطحن دفا، ثم جلس وجلست، ولا يئس ولا يئست، حتى استوفينا، وقلت لصاحب الحلوى: زن لأبي زيد من اللوزينج رطلين فهو أجرى في الحلوق، وأمضى في العروق، وليكن ليلي العمر، يومي النشر، رقيق القشر، كثيف الحشو، لؤلؤي الدهن، كوكبي اللون، يذوب كالصمغ، قبل المضغ، ليأكله أبو زيد هنيئا، قال: فوزنه ثم قعد وقعدت، وجرد وجردت، حتى استوفيناه، ثم قلت: يا أبا زيد ما أحوجنا إلى ماءٍ يشعشع بالثلج، ليقمع هذه الصارة، ويفثأ هذه اللقم الحارة، اجلس أبا زيد حتى نأتيك بسَّقاء،يأتيك بشربة ماء، ثم خرجت، وجلست بحيث أراه ولا يراني، انظر ما يصنع، فلما أبطأت عليه، قام السوادي الى حماره، فاعتلق الشَّواءُ بإزاره، وقال: أين ثمن ما أكلت ؟ فقال أبو زيد: أكلته ضيفاً، فلكمه لكمة، وثنى عليه بلطمة، ثم قال: هاك، ومتى دعوناك ؟ زن يا أخا القحة عشرين، فجعل السوادي يبكى، يحل عقده بأسنانه ويقول: كم قلت لذاك القُريد، أنا أبو عبيد، وهو يقول: أنت أبو زيد، فأنشدت:

اعمل لرزقك كل آلة لا تقعدن بكل حَـاله
وانهض بكل عظـيمة فالمرء يعجز لا محاله

الأزاد: أجود أنواع التمور، والجيد من كل طعام.
النقد: المسكوك من الذهب والفضة.
محاله: جمع محل، أي أمكنة بيع الأزاد.
الكرخ: الجانب الغربي من بغداد.
السوادي: الرجل المنسوب إلى السوداء، وهى منطقة خصبة في جنوب العراق.
يطرف بالعقد إزاره: يرد طرفي الإزار على الآخر.
هلم: تعال.
الدمنة: الأثر القديم.
البدار: المسارعة.
الصدار: القميص.

القرم: الشهوة إلى أكل اللحم.
الحوذابات: جمع حوذابة وهي خبز يخبز في التنور.
السماق: شجر يستخدم بذوره تابلا.
يشعع: يمزج.
الصارة: العطش.

بالطبع ليس هدفنا الآن تحليل المقامة البغدادية، وإن كنا سنعود إليها لاحقا، لكنني أوردتها أخي العزيز لتقرأها وتحس جمالها ولطفها وأسلوبها الطريف الخفيف،وترى جمال سجعها وحسن وقعها، مع العلم أنها كتبت في العصر العباسي كما ذكرت من قبل، وقد قال ابن الباقلاني أن: ما ذكروه من تقديم نبي الله موسى على نبي الله هارون (عليهما السلام) في موضع، وتأخيره عنه في موضع لمكان السجع وتساوى مقاطع الكلام فليس بصحيح، لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه وهى أن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة، تؤدي معنى واحدًا من الأمر الصعب، الذي تظهر به الفصاحة، وتتبين به البلاغة.

وكلام العرب – كما نعلم – ينقسم إلى (نظم – نثر – كلام مقفى غير موزون – كلام موزون غير مقفى – نظم موزون ليس بمقفى كالخطب والسجع – ونظم موزون مقفى له روى) وقد بحث بعض العلماء ولم يجدوا شعرا أقدم من شعر ابن جذام،وهو عمرو بن عدى بن الحارث بن مرة بن أذد بن يشجب بن زيد بن سبأ، وسبأ هي إحدى قبائل العرب القحطانية اليمانية، وترتبط بها واقعتان في الأدب قديمتان، (حوالي ٢٠٠ سنة قبل الهجرة) وهما:

الواقعة الأولى: وهى التي ارتبط بها المثل القائل: «بيدي لا بيد عمرو» وهى واقعة مرتبطة بالملكة الزباء عندما تيقنت من أن عمرو بن عدي أدركها، ولكي لا تقع في أسره شربت سما كان في خاتم لها، وقالت هذه المقولة قبل وفاتها مباشرة.

أما الواقعة الثانية، فهى التي ذكرت في رواية ابن جرير الطبرى، عندما نزل وفد عاد على معاوية بن بكر، وأقاموا فأطالوا، وقد نسوا قومهم، فقال عمرو أبياتًا سبعة عجلت برحيلهم إلى قبيلتهم، وقد ذكر أمرؤ القيس ابن جذام في أشعاره، وهى أقدم أشعار، يقول فيها عمرو بن عدى:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم	**لعل الله يصبحنا غماما**
فيسقي أرض عاد إن عادا	**قد أمسوا لا يبينون الكلاما**
من العطش الشديد فليس نرجو	**به الشيخ الكبير ولا الغلاما**
وقد كانت نساؤهم بخير	**فقد أمست نساؤهم أيامى**

ورغم أن كتب الأدب تتحدث عن قدم هذا الشعر، لكنني أشك في صحة انتساب هذه الأبيات لسهولتها ونعومتها. وقد اختلفوا في الشعر كيف اتَّفق لهم ؟ فقد قيل: قالوا أول الشعر هو الرجز ويقال إن أول من قاله هو: يعرب بن قحطان، ثم إنه اتفق في أصل الشعر أنه غيرَ مقصود، على ما يعرض من أصناف النظام في تضاعيف الكلام، ثم لما استحسنوه واستطابوه ورأوا أنه قد تألفه الأسماع وتقبله النفوس، لدرجة أن بعض العرب كانوا يعلمون أبناءهم أوزان الشعر على وزن مشهور كقول أمريء القيس: «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» ويسمون ذلك الوضع «المتير» واشتقاقه من المتر، وهو الجذب أو القطع، يقال: مترت الحبل، أى قطعته أو جذبته، وقال بعض العلماء، إن الله تعالى أجرى على لسان بعضهم من النظم ما أجرى، وفطنوا لحسنه فتتبعوه من بعد، وبنوا عليه وطلبوه، ورتبوا فيه المحاسن التي يقع الإعجاب بها وتهش لها النفوس، وعرفهم محاسن الكلام، ودلهم على كل طريقة عجيبة، ثم أعلمهم عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن، وأن القدر الذي تتناهى إليه قدرهم هو ما لم يخرج عن لغتهم، ولم يشذ من جميع كلامهم، بل قد عرض في خطابهم، ووجدوا أن هذا لما تعذر عليهم مع التحدي والتقريع الشديد والحاجة الماسة إليه، مع علمهم بطريق وضع النظم والنثر، وتكامل أحوالهم فيه – دل على أنه اختص به ليكون دلالة على النبوة ومعجزة على الرسالة.

ولو أن العرب رأوا أن ما تلى عليهم من القرآن سجعٌ لقالوا: نحن نعارضه بسجع معتدل، فنزيد في الفصاحة عليه ونتجاوز حده في البراعة والحسن، وقد قال أبو الحسن الأشعري في كتابه «مقالات الإسلاميين» ص ٢٢٥: واختلفوا في نظم القرآن، هل هو معجز أم لا ؟ على أقاويل: فقالت المعتزلة – إلا النظام وهشاما الفوطي وعباد بن سليمان–: تأليف القرآن ونظمه معجز، محال وقوعه منهم كاستحالة إحياء الموتى منهم، وأنه علم لرسول الله ﷺ.

وقال النظَّام: الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد، لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم.

المقال السادس عشر:

إن شاء الله، سنبدأ في التحدث عن بعض عيون الشعر، وبلاغة القرآن الحكيم، وذلك جنبا إلى جنب، حتى تقترب صورة الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم من النفوس، وسنختار في كل حلقة من الحلقات القادمة أبياتاً من الشعر، وآيات من كتاب الله.

١ – انظر إلى معلقة الحارث بن حلزة، التي مطلعها يقول:

آذنـتنا ببـَيْنها أسْمَاءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ مِنه الثـَّواءُ

إذا تصفحت معلقة الحارث بن حلزة فسوف تجد قطعة أدبية متميزة، لمحام يذب عن حوض قبيلته بفن خطابي شعري من أروع وأبدع ما قيل، وذلك باعتدال وحكمة وتواضع ولين، وهو أسلوب في الدبلوماسية التي نحتاجها نحن بمصر في هذه الأيام، حيث قتل وأصيب من أبناء مصر كثيرون بسبب البعد عن أسلوب الدبلوماسية والحكمة والمنطق، والعقل، وهذا البيت به من الحكمة واللطف والأدب والبلاغة الكثير.

الإيذان: الإعلان

البين: الفراق

الثواء والثوى: الإقامة

يقول: أعلمتنا أسماء بعزمها على فراقنا، ثم قال: رُبَّ مُقيم تُمَلُّ إقامته، وبالطبع لم تكن أسماء منهم.

الجمال اللغوي: البين عكس الثواء.. وهو من الطباق

الحكمة: «رب مقيم تمل طول إقامته» وقد أقام بيننا بعضهم بمصر حتى مللناهم، وملت إقامتهم، ومنهم: مبارك، صفوت الشريف، زكريا عزمي، فتحي سرور، ويوسف والي من قبل.

تربية: أسماء تعرف أصول التربية، والعلاقات والمعاملات، ولا تغادر دون إعلام.

ثقافة:أسماء مثقفة ثقافة رفيعة، وقد انعكس ذلك على شخصيتها.

انظر إلى مقدمة معلقة الأعشى الأكبر:

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ، إنَّ الرَّكبَ مُرْتَحِلُ وهَلْ تُطيقُ وَداعًا أيُّها الرَّجُلُ

الركب: أصْحابُ الإبل في السفر، ولا يُقال لمن يسافر على غير الإبل ركب.
هريرة: اسم امرأة، قد تكون امرأته، ابنته، حبيبته،....
المعنى: الركب على وشك الارتحال، فهيا جهز نفسك لوداع هريرة

المشكلة والعقدة: المشكلة الحقيقية التي لم يضعها الأعشى في الاعتبار هي أن قلبه لن يقوى على الوداع وستخونه دموعه أمام الجميع، وسيضعف، وينهار ساعة الجد.

إنسانيته: حيرته بين واجب الوداع وطاقة التحمل.

جمال التعبير: ورود جملة: «أيها الرجل»، حيث «وهل تطيق وداعًا» سؤال تقريري استنكاري بمعنى لن تطيق وداعًا، وجملة «أيها الرجل» أي رغم أنك رجل، والرجولة تتطلب شموخًا وحضورًا، فلن تستطيع، وهنا تظهر شدة وقسوة الموقف وحضور المشكلة.

انظر إلى الآية (٤) من سورة القصص: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾

آية واحدة في سطرين تحتوى على ست جُمل:

١ – إن فرعون علا في الأرض.
٢ – جعل أهلها شيعا.

٣ – يستضعف طائفة منهم.
٤ – يذبح أبناءَهم.
٥ – يستحي نساءَهم.
٦ – إنه كان من المفسدين.

كلمات من اللطافة والوصف الدقيق الموجز البديع السلس الفصيح، تشتمل على جملة وتفصيل، وجامعة وتفسير، وقد ذكر العلو في الأرض باستضعاف الخلق والتفريق بينهم وذبح الولدان واستحياء النساء، ونشر الفساد.

ثم انظر إلى الآية التالية وهى آية٥: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾

حيث تجد في سطر واحد، ما ردَّ آخر الكلام على أوله، وعطف عجزه على صدره، وهذا من التأليف بين المؤتلف والجمع بين المستأنِس. ثم في الآية ٦ منتهى الإعجاز والبيان والبلاغة والتمكين للمستضعفين.

﴿**وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ**﴾

هل تعرف – صديقي العزيز – طرفة بن العبد، إنه أحد أصحاب المعلقات، إنه ذلك الشاعر الشاب الحكيم الذي قتله لسانه، إنه يقول في آخر معلقته:

سَتبدي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهِلا ... ويأتيكَ بالأخبارِ من لم تُزَوَّدِ
ويأتيكَ بالأخبار مَنْ لم تَبِعْ له ... بتاتًا ولم تَضْرِبْ له وقْتَ مَوْعِدِ

باع هنا بمعنى اشترى.
البتات: كساء المسافِر وأداته.

لكن مطلع معلقة طرفة، يقول:

لِخَوْلَةَ أطلالٌ ببرقةِ ثهْمَدِ تَلوحُ كباقِي الوَشمِ في ظاهِرِ اليَدِ

خولة: اسم امرأة كلبية.

الطلل: ما شخص من رسوم وبقايا الديار، الجمع طلول وأطلال.

البرقة والأبرق والبرقاء: مكان يختلط ترابه بحجارةٍ أو حصى، جمعه الأبارق والبراق والبرق، وإذا حمل على معنى البقعة أو الأرض قيل البرقاء، وإذا حمل على المكان أو الموضع قيل الأبرق.

ثهْمد: اسم موضِع.

تلوحُ: أى تلمَعُ، واللوح هو اللمعان.

الوَشم: غرز ظاهر اليد وغيره بإبرة وحشو المغارز بالكحل أو النقش بالنيلج، والفعل منه وشم يشم وشماً، ثم جعل اسماً لتلك النقوش، ويجمع بالوشام والوشوم.

ومنه قوله ﷺ: «لعن الله الواشمة والمستوشمة»، الواشمة هى التي تشم والمستوشمة هى التي يُفعَل بها ذلك.

اليد: من المنكب إلى أطراف الأصابع، والمقصود باليد هنا هو الكف، والكف لها باطن وظاهر، الباطن هو الجزء الناعم ذو الخطوط المتقاطعة، وظاهر اليد وهو الجهة التي يتم وشمها، ومع مرور الأيام تضيع بعض آثار الوشم، تماما كالأطلال وما يتبقى يلوح مع حركة اليد وتكسر الضوء.

من مظاهر الجمال في البيت:

التصريع: وهو يحدث في أول بيت، وهو أن يكون كل من العروض والضرب لهما نفس القافية والوزن.

كلمتي: تلوح، ظاهر من أنواع الطباق في المعنى.

التشبيه: شبه طرفة لمعان آثار ديار خولة ووضوحها بلمعان آثار الوشم في ظاهر اليد.

المعنى: لخولة أطلال ديار وبقايا بمنطقة يخالط أرضه حجارة وحصى من ثهمد، فتلمع هذه الأطلال لمعان بقايا الوشم في ظاهر الكف.

البيان اللغوي: بيت واحد عرفنا منه اسم الحبيبة، ومكان الحب القديم، وعرفنا عادة بدوية (مازالت موجودة إلى اليوم وهى الوشم) ووضعنا أيدينا على تشابه جميل رقيق.

والآن انظر – بارك الله فيك – إلى الآية (٥) من سورة غافر: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ**﴾

هل لاحظت الإعجاز اللغوي في هذه الآية؟، سوف أضع يديك على دُرَّة من دُرر القرآن الكريم، نحن نعلم أن رسل الله عليهم السلام تعرضوا لكثير من الأذى فمنهم من قتل، ومنهم من نفي، ومنهم من رجم، ومنهم من كُذِّب، ومنهم من قوطع، فهل توجد كلمة جامعة لكل هذه الأعمال ؟ بحيث أن هذه الكلمة تصلح مع ما مارسه قوم كل نبي مع نبيهم ؟

ونعلم أيضا أن الله سبحانه وتعالى عاقب المجرمين والكفار بأساليب مختلفة فبعضهم اهلكوا بالطاغية، وبعضهم بريح صرصر عاتية، وبعضهم بالطوفان، وبعضهم بالأخذ بالسنين، وأرسل على بعضهم حاصبا، وبعضهم بالصيحة، وبعضهم بالخسف، فهل توجد كلمة جامعة لكل هذه الأفعال؟.

استخدم القرآن الكريم كلمة معجزة، تستطيع أن تستخدمها، فتحل لنا الإشكال اللغوي مع الجميع وهى: ﴿وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه﴾ في الأولى و﴿فأخذتهم فكيف كان عقاب﴾ في الثانية، وكذلك [أخذ] ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة.

هل توجد كلمة أجمل وأقوم وأقطع من كلمة أخذ التي استخدمها القرآن الكريم، حاول – أخي العزيز – لكن لن تجد، وهذا من الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم.

المقالُ السابع عشر

انظر – بارك الله فيك – إلى آخر آيتين بسورة الشورى:

﴿وكَذلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾

تجد أن كل كلمة من كلمات الآيات بديعة الوصف والرصف والبيان، وستحس أنها صادرة عن ربوبية، ونفحة إلهية، فالجملة الأولى تقول:

﴿وكذلك أوحينا إليك رُوحًا من أمرنا﴾ روحًا من أمرنا، أى أن كلمات الله تحيى الموات وتبعث بعد موت، فالوحى يحيى بأمر الله.

الجملة الثانية: ﴿ولكن جعلناه نورًا نهدى به من نشاءُ مِنْ عِبادنا﴾ فكلمات الله نور يضيء الظلمات ويحيى الأموات من العباد، فهو كالروح بالنسبة للجسد، وكالشمس التي تحيل ظلام الليل إلى نهار مشرق مضيء، والعجيب هنا هو ربط الهداية بالمشيئة الإلهية.

الجملة الثالثة ﴿وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، ألا إلى الله تصير الأمور﴾، فالرسول يهدى بكتاب الله ورسالته إلى صراط مستقيم، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من عباده، الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض.

الجمل الثلاث، الأوليتان منهم مؤتلفتان، ولكن تأتي الجملة الثالثة وهى قوله سبحانه وتعالى: « ألا إلى الله تصيرُ الأمور» وهى جملة منفصلة، لكنها تأتى فتجعلهما أشد ائتلافًا، وألطف انتظامًا واكتمالاً وبيانًا.

انظر إلى قوله سبحانه وتعالى، آية ٩٦ سورة الأنعام: **﴿فَالِقُ الإِصْباحِ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً، وَالشمسَ والقمَرَ حُسْباناً، ذلكَ تقديرُ العزيز العَليم﴾**.

يقولُ الباقلاني عنها في كتابه إعجاز القرآن، ص ١٨٨:

انظر إلى هذه الكلمات الأربع التي أَلَّف بينها، واحتجّ بها على ظهور قدرته، ونفاذ أمره، أليس كلُّ كلمة منها في نفسها غُرّة؟ وبمفردها درة؟

وهو – مع ذلك – يبين أنه يصدر عن علو همة، ونفاذ القَهْر، ويتجلى في بهجة القدرة، ويتحلى بخالصة العزة، ويجمع السَّلاسة إلى الرصانة، والسلامة إلى المتانة، والرونق الصّافي، والبهاء الضّافي.، ولا تنس شموله على الطباق المليح، والإيجاز اللطيف، والتعليل والتمثيل، والتقريب والتشكيل، وقد جمع كل ذلك وأكثر، لأن العجيب ما قلنا من أن كل كلمة بمفردها اختيرت بما يجعلها تصلح أن تكون عين رسالة أو خطبة، أو وجه قصيدة أو فقرة، وهى تزيد الكلام حسنًا ومعرفةً وإيمانا.

وقد تلاحظ أن معظم المشكل من القرآن، يرجع إلى سوء تقدير القراء أو المفسرين ومنه:

يقول ربنا سبحانه وتعالى في الآية السابعة والثلاثون من سورة ق: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾، أي لمن أعمل قلبهَ فيمَا خلَق القلب لهَ من التدبر والتفكر والنظر ولا يتفكرَ، كأنه عدم القلب من حيث عدم الانتفاع به، وعند تفسيرنا لهذه الآية يجب أن نضع كل كلمة في مكانها وألا نتلاعب بالألفاظ، فتضيع المعاني، فقد نرى بعض المفسرين يأخذون القلب على أنه العقل، حتى كأن القلب اسم للعقل، وهذا يؤدى إلى إبطال الغرض من الآية، وإلى تحريف الكلام عن صورته، فنحن نعرف أن المراد هنا الحث على النظر فإن من لايفقه بقلبه ولا ينظر ولا يتدبر، كأنه ليس بذي قلب، فهو لا يشعر ولا يفكر.

ومثل ذلك: ﴿**قُلِ ادْعُواْ اللَّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً**﴾ الإسراء (١١١)، فإن من لم يعلم أن المعنى هنا ليس المعنى في «الدعاء ولكن بالاسم، كقولنا: «هو يدعى زيدا» وأن في الكلام محذوفا، وأن التقدير: قل ادعوه الله، أو ادعوه الرحمن، أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى. وفي حالة إذا جرى الكلام على ظاهره قد يخرج ذلك إلى إخراج مدعوَّين، تعالى الله عن الشريك، كما نقول: ادع لي فلانا أو فلانا، وأيضا محال أن نقول في هذه الحال: أيا ما تدعو، وليس هناك إلا مدعو واحد.

ومن المشكل فيه قراءة: «وقالت اليهود عُزير ابنُ الله» بغير تنوين، وذلك أنهم قد حَملوها على وجهين: أولهما أن يكون القارئ له أراد التنوين ثم حذفه لانتفاء الساكنين ولم يحركه، كقراءة «قل هو الله أحد، الله الصمد» بترك التنوين من أحَدُ،

وكما حُكِيَ «ولا الليل سابق النهار» بالنصب، فقيل له: ما تريد ؟ فقال: أريد سابق النهار. قيل: فهلا قلته ؟ فقال: فلو قلته لكان أوزن.

والوجه الثاني: أن يكون الابن صفة، ويكون التنوين قد سقط على حد سقوطه إذا قلنا «جاءني زيد بن عمرو» ويكون في الكلام محذوف، ثم اختلفوا في المحذوف، فمنهم من جعله مبتدأ فقدر؟ وقالت اليهود عزير ابن الله معبودا.

تفسير ذلك – كما يقول «عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز» ص ٣٧٧:

أنك إذا قلت: «جاءني زيد الظريف» فإنك إنما تحتاج إلى أن تصفه بالظريف، إذا كان فيمن يجئ إليك واحد آخر يسمى زيدا فأنت تخشى إن قلت: جاءني زيد ولم تقل جاءني زيد الظريف أن تلتبس على المخاطب فلا يدري أ هذا عنيت أم ذاك ؟ وإذا كان الغرض من ذكر الصفة إزالة اللبس والتبيين، كان محالا أن تكون غير معلومة عند المخاطب، وغير ثابتة.

ومنه أيضا قوله سبحانه وتعالى في سورة النساء (١٧١): ﴿**وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ، انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ**﴾ وذلك أنهم قد ذهبوا في رفع ثلاثة إلى أنها خبر مبتدأ محذوف، وقالوا: إن التقدير: «ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة» وليس ذلك بمستقيم، وذلك أنا إذا قلنا: «ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة» كان ذلك شبه الإثبات أن هاهنا آلهة، من حيث أنك إذا نفيت، فإنما تنفي المعنى المستفاد من الخبر عن المبتدأ، ولا تنفي معنى المبتدأ، فإذا قلت: «ما زيد منطلقا» كنت نفيت الانطلاق الذي هو معنى الخبر عن زيد، ولم تنف معنى زيد ولم توجب عدمه، فإذا قلنا: «ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة» كنا قد نفينا أن تكون عدة الآلهة ثلاثة، وننف أن تكون آلهة، جل الله تعالى عن الشريك.

المقالُ الثامنُ عشر:

الشعر ديوانُ العرب، وأنت تستطيع من قصيدة واحدة أن تحكم على عصرها وعادات أهلها، وصفاتهم، وأحلامهم، وحدث في العصر الأموي أن تهاجى وتفاخر ثلاثة شعراء هم جرير، الفرزدق والأخطل، وسمعنا منهم مجادلات وسجالات ومقابلات رسمت صورة واضحة عن عادات وتقاليد وحياة العرب في تلك الآونة، وكانت تأريخاً لها.

هجى الفرزدقُ جريرا، قائلا:

إنَّ الذي سَمَكَ السَماءَ بنى لنا بيتاً دعائمه أعَزُ وأطوَلُ
بيتاً بناه لنا المليكُ وما بنى حَكَمُ السَماءِ فإنه لا يُنقلُ

رد عليه جرير، قائلا:

إنَّ الذي سمك السماءَ بنى لنا بيتاً علاكَ فماله من مَنقلِ

وعندما قال الفرزدقُ:

يابن المراغة أينَ خالكَ إنني خالي حُبيش ذو الفعال الأول

رد عليه جرير:

كان الفرزدقُ إذ يعوذُ بخاله مثل الذليل يحومُ تحت القرمَل

وبالطبع، كانت ردود جرير لاذعة مُرّة، فشجر القرمل هو نوع من الأشجار الشائكة بالصحراء، فلن ينل الإنسان منها خيرا، إلا أن تدميه وتمزق ملابسه، وهذا تسفيه للفرزدق وخاله. وسوف نتحدث عن الشعراء الثلاثة، ونعرف قصة بيت جرير الذي يقول فيه:

فَغُضُّ الطرْفَ إنَّكَ مِنْ نُمَير فَلا كَعْبٍ بَلغْتَ ولا كلابا

كان الشعراء الثلاثة (جرير، الفرزدق والأخطل) أشهر شعراء العصر الأموي، وقد قامت بينهم معارك ومضاربات (نقائض) وكانت حرباً هجائية ممتعة، انتصر فيها جرير، وحدث خلالها كثيرٌ من الطرف والمفاجآت والقفشات، منها هذه الطرفة:

دخل رجل من بنى عذرة على عبدالملك بن مروان يمتدحه بقصيدة، وكان يجلس بمجلسه الشعراءُ الثلاثة، فلم يعرفهم الأعرابي، فقال عبد الملك للأعرابي: هل تعرف أهجى بيت قالته العرب في الإسلام ؟ قال: نعم، قول جرير:

فَغُضُّ الطرْفَ إنكَ مِنْ نميرٍ فلا كَعْباً بَلغْتَ ولا كِلابا

قال أحسَنْتَ، فهل تعرف أمْدَحَ بَيْتٍ قيلَ في الإسلام ؟

قال نعم: قول جرير:

ألسْتم خيْرُ من رَكِبَ المطايا وأندى العالمينَ بطونَ راحِ

فقال: أحسنت، فهل تعرف أرق بيت قيل في الإسلام ؟

قال نعم، قول جرير:

إنَّ العيونَ التي في طرفها حَوَرُ قتلننا ثم لم يحيين قتْلانا
يَصْرَعْنَ ذاااللبِّ حتى لاحِراكَ به وَهُنَّ أوهَنُ خلقِ اللهِ إنسانَا

فقال: أحسنت، فهل تعرف جريراً ؟ قال: لا والله، وإني إلى رؤيته لمشتاق، قال: فهذا جرير وهذا الفرزدق وهذا الأخطل !! فأنشأ الأعرابي يقول:

فحيا الإله أبا حِـرْزة وأرغم أنفك يا أخطـلُ
وجد الفرزدق أتعس به ورق خياشيمه الجـندلُ

فأنشأ الفرزدق يقول:

يا أرغم الله أنفا أنت حامله يا ذا الخنا ومقال الزور والخطل
ما أنت بالحكم ترضي حكومته ولا الأصيل ولا ذي الرأي والجدل

ثم أنشأ الأخطل يقول:

يا شر من حملت ساقٌ على قدَم ما مثل قولك في الأقوام يحتمل
إنَّ الحكومةَ ليست في أبيك ولاَ في مَعْشَرٍ أنتَ مِنهم أنهَم سفلُ

فقام جرير مغضباً وقال:

أتشتمان سَفاهاً خيركم حَسَبا ففيكما - وإلهي - الزورُ والخَطلُ
شتمتماه على رفعي ووضعكما لازلتما في سفالٍ أيُّها السفلُ

ثم وثب جرير فقبل رأس الأعرابي وقال: يا أمير المؤمنين جائزتي له، وكانت خمسة آلاف، فقال عبد الملك: وله مثلها من مالي، فقبض الأعرابي ذلك كله وخرج.

كنا أثناءَ المرحلة الثانوية كثيرا ما نستخدم بيتي جرير:

زعَمَ الفرزدقُ أن سيقتل مربعًا أبشر بطولِ سلامةٍ يا مِرْبَعُ
ورأيتُ نبلك يا فرزدق قصَّرت ورأيت قوسك ليس فيها منزعُ

وكثيرا من أبيات النقائض، وقد سجل تاريخ الأدب العربي ظاهرة النقائض، حيث كان الشاعر يقول قصيدته في هجاء غيره، ويرد غيره بهجائه فلا يصمد إلا الشاعر الفحل، ولا يبقى في الساحة إلا الشاعر القوى الذي جبل على الهجاء، وعلى كل لم يصمد في ساحة النقائض وحربها التي استمرت حوالي أربعين عاما إلا ثلاثي أضواء النقائض جرير، الفرزدق والأخطل، ودعونا الآن نرى قصة جرير مع الراعي.

قيل أن الراعي الشاعر كان يُسأل عن الشاعرين جرير والفرزدق فيقول: الفرزدق أكبرهما وأشعرهما.

قابله الشاعر جرير، في الطريق ذات مرة وطلب منه ألا يتدخل بينه وبين الفرزدق، فوعده بذلك.. ولكن الراعي هذا لم يلبث أن عاد إلى تفضيل الفرزدق على جرير، فحدث أن رآه ثانية، فعاتبه فأخذ يعتذر إليه، وبينما هما على هذا الحديث، أقبل ابن الراعي وأبى أن يسمع اعتذار أبيه لجرير، حيث شتم ابن الراعي الشاعر جريرًا وأساء إليه..

وكان من الطبيعي أن يسوء ذلك جريرًا ويؤلمه، فقد أحس بأنه أهين إهانة بالغة، فذهب إلى بيته، ولكنه لم يستطع النوم في تلك الليلة، وظل قلقا ساهرا ينظم قصيدة سنورد بعض أبياتها بهذه المناسبة، فلما أصبح الصباح، ألقاها الشاعر جرير في «المربد» على مسمع من الراعي والفرزدق والناس، فكانت القصيدة شؤما عليهم، حتى صار بنو نمير قبيلة الراعي إذا سئلوا عن نسبهم لا يذكرون نسبهم إلى «نمير»

بل ينتسبون إلى جدهم عامر. هذا وقد سمى جرير قصيدته هذه «الدامغة» لأنها أفحمت خصمه

أعَــدَّ اللهُ للشعـراءِ مني صواعـق يخضعون لها الرقابا
أنا البازي المطل على نمير أتيح من السماء له انصبابا
فلا صلى الإلـه على نمـير ولا سقيت قبورهم السحابا
ولو وزنت حلوم بني نمير على الميزان ما وزنت ذبـابا
فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا
إذا غضيت عليك بنو تميـم حسبت الناس كلهم غضـابا

الكلمات واضحة سهلة، تتصف بهجاء الخصم وإلحاق العيوب والمساوىء به، كما أنها تتصف أيضا بفخر الشاعر بنفسه، عدا أن الشاعر يتهكم بخصمه وبقومه، فيسخر من عقولهم الصغيرة كعقول الذباب، ثم يطلب الشاعر من خصمه أن يتوارى عن الأنظار ويخجل من نفسه هو وقومه. ويختتم القصيدة ببيت رائع شهير بالفخر.

فالفخر هو الوجه الآخر للهجاء، فالطرف الذي يتلقى الهجاء من الشاعر، يجده فخرًا بالنسبة لنفسه ولقومه.

فهنا يفاخر جرير بمجده ومجد قومه فخرًا جاهليًا، يعتز فيه ببطولتهم وأيامهم القديمة وما ورثوا من مجد، فهو قد هيأ هجاءه لكل الشعراء الذين تحدثهم أنفسهم بالتعرض له بأنه سيقضي عليهم ويحطم عزهم.. أو يكف الشعراء بعد أن يقول كلمته الفاصلة، أن يطمعوا في التعرض لي، ليقاسوا من هجائي نارًا تلفح وجوههم لفحًا؟

فالهجاء عند جرير شديد الصلة بالفخر، فهو إذا هجا افتخر، وجعل من الفخر وسيلة لإذلال خصمه.

أما موضوع فخره بنفسه وشاعريته، ثم قومه وإسلامه.

فإذا هجا الفرزدق اصطدم بأصل الفرزدق الذي هو أصله، فكلاهما من «تميم»، وإذا هجا الأخطل فخر بإسلامه ومضريته، وفي مضر النبوة والخلافة، فهو الذي

يقول:

إن الذي حرم المكارم تغلبا جعل الخلافة والنبوة فينا

هذا وكان لجرير مقدرة عجيبة على الهجاء، فزاد في هجائه عن غيره طريقة اللذع والإيلام.. فيتتبع حياة من يهجوه وتاريخ قبيلته، ويعدد نقائصهم مختلفًا، مكررًا، محقرًا.

المقالُ التاسع عشر:

ولنرى الآن، بعضَ نماذج قصائد النقائض، فقد هجا الفرزدق جريرا بهذه الأبيات:

إنَّ الذي سَمَكَ السَماءَ بنى لنا ... بَيْتاً دَعائِمَهُ أعَــزُّ وَأطوَلُ
بَيْتاً بَنــاهُ لنا المَليكُ وما بنى ... حَكَمُ السَماءِ فإنَّهُ لا يُنْقَلُ
بَيْتاً زُرارةُ مُحْتَب بفنائــهِ ... وَمُجاشِعُ وأبو الفوارس نهشلُ
لا يحتبي بقناءِ بيتٍ مثلهم ... أبَـدًا إذا عُدَّ الفــعالُ الأولُ
يَرجونَ بَيْتَ مُجاشِع وإذا احتبوا ... بَرَزوا كأنَهُمُ الجبالَ المُثــَّلِ
ضَرَبَتْ عَليْكَ العَنْكَبوتُ بنسْجها ... وَقضى عَليْكَ بهِ الكتابُ المُنْزلُ
أحْـلامُنا تزنُ الجبالَ رزانَةً ... وَتخــالنا جنـاً إذا ما نجهَلُ
فادفعْ بكفِّكَ إن أرَدْتَ بناءَنا ... ثَهْلانَ ذا الهَضباتِ هل يتحلحلُ؟!
يابن المراغةِ أيْنَ خالكَ إنني ... خالي حُبَيْش ذو الفعَالِ الأفضلِ
إنا لنضربَ رأسَ كلِّ قبيلةٍ ... وأبــوكَ خَـلفَ أتانهِ يتــقمَّلُ
خالي الذي غصَبَ الملوكَ نفوسَهم ... وَ إليهِ كانَ حِــباءُ جفَــنةَ يُنْــقلُ
وشغلتَ عن حَسَبِ الكِرامِ وما بَنَوا ... إنَّ اللئيمَ عن المَكارمِ يُشغَلُ

فأجابه جريرُ بقوله:

أعْدَدْتُ للشعَراءِ سُمًّا ناقعًا ... فَسَقيت آخرَهُمْ بكأسِ الأوَّلِ
لما وَضَعْتُ على الفرزدق مِبْسَمي ... وَضعا البَعيثُ جَدَعْتُ أنْفَ الأخطلِ
أخزى الذي سَمَكَ السَماءَ مُجاشِعًا ... وبنى بناءَكَ في الحَضيضِ الأسْفلِ
ولقدْ بنيْتَ أخسَّ بيتٍ يُبْتنى ... فهدَمت بيتَــكم بمثْلي يذبلَ
بَيْـتًا يُخيمُ قيـنكم بفــنائه ... دَنسًا مقاعدَه خبيثَ المُدْخلِ
إني بَنى لي في المَكارمِ أوَّلي ... وَنفخت كيرَكَ في الزمانِ الأوَّلَ
إني انصببتُ من السَماءِ عليكمَ ... حتى اختطفتك يا فرزدق من عَلِ
أحلامُنا تزن الجبالَ رزانةً ... ويفـوقُ جاهِـلنا فعالَ الجُــهَّلِ

فارْجِعْ إلى حكمى قريش إنهم أهْـلُ النـبوَّةِ والكـتابِ المُنزَّلِ
كانَ الفرزدقُ إذ يَعوذُ بخالِهِ مِثلَ الذليلِ يحومُ تحتَ القرْمَلِ
بات الفرزدق يستجير لنفسه وعجانُ جعثن كالطريق المعملِ
قُتلَ الزبيرُ وأنت عاقدُ حبوةً تبًا لحبوتك التي لم تتحللِ
أبْلغْ بني وقبان أنَّ حلومَهم خفَّت فلا يزنونَ حَبَّةَ خـرْدَلِ
إنَّ الذي سَمَكَ السَمَاءَ بنى لنا عِزاً عَلاكَ فما له من مَنْقلِ

وعندما قال الفرزدق:

حُللُ الملوكِ لباسُنا في أهلنا والسابغات إلى الوغى نتسَرْبَلُ

رد عليه جرير:

لا تذكروا حلل الملوك فإنكم بَعْدَ الزبير كحائضٍ لم تُغسَلِ

أضعف الإسلام العصبية، لكن مع بدايات العصر الأموي أثرّت بعض العوامل القبلية والعوامل الأخرى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والشخصية.. فكانت نقائض هذا العصر تختلف عن نقائض العصر الجاهلي بطولها وإفحاشها واتساع الخيال فيها..

هذا ومن المعروف كما ذ كرنا من قبل أن المعركة الشعرية نشبت بين الفرزدق وجرير ودامت أكثر من أربعين عامًا، والنقائض قصائد امتزج فيها الهجاء والفخر، وكثرت فيها الإشارة إلى ماضي القبائل في الجاهلية وحاضرها في عهد بني أمية، حيث يقول الشاعر قصيدته، فيرد عليه خصمه بقصيدة من وزنها وقافيتها ويتعقب أفكاره ومعانيه، فيردها عليه..

على أن فن النقائض نشأ أول ما نشأ في العصر الجاهلي وامتد حتى ازدهر في العصر الأموي الذي استيقظت فيه العصبية ولما كانت النقائض تقوم على الهجاء، وفن الهجاء بدوره يقوم على أمور ثلاثة متلازمة، الأول أن يذكر الشاعر عيوب ونقاط ضعف خصمه ومثالبه ومثالب قبيلته، والثاني تناول الأعراض وقذف المحصنات والشتائم، والثالث تصوير الخصم بصورة ساخرة تحمل الجميع على الضحك، لذلك فهى محرمة، ووقف الخلفاء دون انتشارها وتفشيها.

المقالُ العشرون:

بَعْدَ أنْ وضعْنا أيْدينا على بَعْض الأصْداف والدرر في لغتنا الجميلة، وبَعْدَ أن عرفنا أن القرآن الكريم، لا يجاريه بَيان ولا حكمة، لأنه تنزيل من لدن عزيز حكيم، يتبادر إلى الذهن سؤال يقول: هَلْ النبي عليه صلوات الله وسلامه، بما أوتى من جوامع الكلم، يقرب في البلاغة من بلاغة القرآن الكريم ؟ أم أن كلامه عليه الصلاة والسلام يتفوق على غيره من البشر والصحابة فقط، لكن هناك بون واسع بين كلامه وخطبه ورسائله وبين آيات الذكر الحكيم. ولننظر بعضَ نماذج من خطبه ورسائله، بعد أن نثبت أنه ليس بشاعر، كما قالت الآية ٩٦ من سورة يس:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِين﴾ يس (٦٩)

جاء في تفسير البغوي لهذه الآية: قال الكلبي: إن كفار مكة قالوا: إن محمدًا شاعر، وما يقوله شعر، فأنزل الله تكذيبًا لهم له، حتى إذا تمثل ببيت شعر جرى على لسانه منكسرا.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني الحسين بن محمد الثقفي، حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، حدثنا يوسف بن عبد الله بن ماهان، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن الحسن أن النبي ﷺ كان يتمثل بهذا البيت، لسحيم عبد بني الحسحاس (انظر المقال الأخير):

عميرة ودّع إن تجهّزت غاديا كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

ولكنه كان يقول [كفي الإسلام والشيب للمرء ناهيا] بدلا من [كفي الشيب والإسلام للمرء ناهيا]، ولما سأله أبو بكر وعمر في ذلك، قال: أنا لست بشاعر.

والآن لنرى بعض النماذج من خطبه ﷺ:

١ – يقولُ ﷺ في خطبة له: «أيها الناس: إن لكم مَعَالِمَ، فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نِهاية فانتهوا إلى نهايتكم. إن المؤمنَ بين مخافتين، بينَ أجَل قد مَضى، لا يَدْرى ما الله صانعٌ فيه، وبين أجَلٍ قد بقى، لا يدري ما الله تعالى قاض عليه فيه. فليأخذ العَبْدُ لنفسه من نفسه، ومنَ الدنيا للآخرة، ومِنَ الشباب قبلَ الكبر، ومِنَ الحَياةِ قبلَ المَوْتِ. والذي نفسُ محمد بيده: ما بَعْدَ المَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَب، ولا بعد الدنيا دار، إلا

الجنة أو النار».

٢ – روى زَيْدُ بن ثابت: أنّ النبي ﷺ خطب بالخَيْف من منى، فقال: «نضّرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مقالتي فوعاها، ثم أداها إلى من لم يسمعها، فرُبَّ حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاثٌ لا يُغِلُّ عليهنَّ قلبُ المؤمنِ: إخلاصُ العمل لله، والنصيحة لأولي الأمر، ولزوم الجماعة، إن دَعْوَتهم تكون من ورائه. ومن كان هَمُّه الآخرة: جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كان همه الدنيا: فرَّق الله أمْرَه، وجَعَلَ فقرَهُ بَيْنَ عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له».

٣ – كتاب النبي ﷺ إلى ملك فارس: «من محمد رسولُ الله إلى كسرى عظيم فارس: سَلامٌ على من اتبع الهدى، وآمَنَ بالله ورسوله، وشهد أن لَا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وأدعوكَ بدعاء الله سبحانه وتعالى، فإني أنا رسول الله إلى الناسِ كافة، لأنذرَ من كانَ حيا، ويحِقَّ القَوْلُ على الكافرين، فأسْلِمْ تسْلَمْ».

٤ – نسخة عقد الصلح مع قريش عام الحديبية: «هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله [ﷺ]، سُهَيْلَ ابْنَ عَمْرو: اصْطلحا على وَضع الحَرْب عن الناس عَشرَ سنين، يأمَنُ فيها الناسُ، ويكفُّ بعضُهُم عَن بَعض على أنه من أَتى رسولَ اللهِ ﷺ مِنْ قريش بغير إذن وليهِ ردَّه عليهم، ومن جاءَ قريشًا ممن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يَرُدُّوهُ عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة، وإنه لا إسلال، ولا إغلال، وأنه من أحبَّ أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه، وأنك ترجع عنا عَامك هَذا، فلا تدخل علينا مكة، فإذا كان عاما قابلا خرجنا عنك، فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثًا، وأنَّ مَعَكَ سلاحَ الراكِبِ، والسيوفَ في القربِ، فلا تدخلها بغير هذا».

هل رأيت مدى الفرق بين هذا الكلام الجميل من جهة، وبين براعة القرآن الكريم من جهة أخرى، فبين النهجين بونًا بعيدًا، وأمَدًا مديدًا، وميدانًا واسعًا، ومكانًا شاسعًا، وبعد دراسة وتمحيص ستجد – أخي العزيز – أن نظم القرآن الكريم من الأمر الإلهي، وأن كلام النبي صلى الله عليه وسلم من الأمر النبوي.

وكي تتضح الصورة أمامنا أكثر، كان من الضروري عرض بعض خطب ورسائل بعض الصحابة، حتى تعلم أن نسجها ونسج بعض خطب النبي واحد، وسبكها غير مختلف وإنما يقع بين كلامه وكلام غيره، ما يقع من التفاوت بين كلام الفصحاء وبين كلام البلغاء.

خطبة لأبي بكر الصديق ﷺ قام خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعدُ، فإني وَليتُ أمْرَكُم، ولست بخيركم، ولكنْ نَزَلَ القرآن، وسَنَّ النبي صلى الله عليه وسَلم، وعَلَّمنا فَعَلِمْنا.

واعلموا أنَّ أكيسَ الكَيْس التقي، وأن أحْمَقَ الحُمْق الفُجُور، وأنَّ أقواكم عندي الضعيف، حتى آخذ له بحقه، وأنَّ أضعَفَكم عندي القويُّ، حتى آخذ منه الحقَّ.

أيها الناسُ، إنما أنا مُتَّبِعٌ، ولستُ بمُبْتدع، فإن أحسنت فأعينوني، وإن زُغتُ فَقَوِّموني».

عهدٌ لأبي بكر الصديق إلى عُمَرَ رضى الله عنهما

بسم الله الرحمن الرحـــيم

هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة، ساعة يؤمن فيها الكافرُ، وَيَتَّقِي فيها الفاجرُ.

إني استخلفتُ عليكم عمَر بن الخطاب، فإن بَرَّ وعَدَلَ: فذاك ظني به، ورأيي فيه، وإن جارَ وبدَل فلا علمَ لي بالغيب والخيرَ أردْت لكم، ولكل امرئ ما اكتسَبَ مِن الإثم، وسيعلم الذينَ ظلموا أيَ مُنْقلب يَنقلبون.

وفي حديث عبد الرحمن بن عوف رحمة الله عليه، قال:

دخلت على أبي بكر الصديق رضى الله عنه، في علته التي مات فيها، فقلتُ: أراك بارئًا يا خليفة رسول الله، فقال: أما إني – على ذلك – لشديد الوجع، ولمَا لقيتُ منكم – يا معشر المهاجرين – أشدُّ عليَّ من وجعي، إني وَليْتُ أموركم خيرَكم في نفسي،فكلكم وَرِمَ أنْفُه أن يكون له الأمر من دونه.

والله لتتخذنَّ نَضائدَ الديباج، وستور الحرير، ولتألمن النوم على الصوف الأذربي،كما يألم أحدكم النوم على حَسَك السَّعدّان، والذي نفسي بيده لأن يقدَّم أحدكم فتضرب رقبته في غير حدٍّ، خيرٌ له من أن يَخوضَ غمَراتِ الدنيا.

يا هادي الطريق جُرْت، إنما هو – والله – الفَجْرُ أو البَجْرُ.

قال: فقلت: خفض عليك يا خليفة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فإن هذا يهيضك إلى ما بك، وَالله مازلت صالحًا مُصلحًا، لا تَأسَى على شئ فاتك من أمر الدنيا، ولقد تخليت بالأمر وحدك، فما رأيتَ إلا خيرًا.

ولنقرأ الآن نسخة كتاب كتبه أبو عبيدة بن الجراح ومُعاذُ بن جبل إلى عمر بن الخطاب، رضى الله عنهم:

سلام عليك، فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد، فإنا عهدناك وأمْرُ نفسك لك مُهم، فأصبحت وقد وُليت أمرَ هذه الأمة أحْمَرَها، وأسْوَدَها، يجلس بين يديك الصديقُ والعدو، والشريف والوضيع، ولكل حصته من العدل، فانظر كيفَ أنت – يا عمر – عند ذلك، فإنا نُحَذِّرُكَ يَوْمًا تعنو فيه الوجوه، وتجب فيه القلوب.

وإنا كنَّا نتحدّثُ أن أمْرَ هذه الأمة يَرْجِعُ في آخر زمانها: أن يكون إخوان العلانية أعداء السَّريرة، وإنا نعوذ بالله أن تُنزل كِتابَنا سوى المنزل الذي من قلوبنا، فإنا إنما كتبنا إليك نصيحة لك، والسلام.

كتب عمر بن الخطاب إليهما الرد التالي:

من عمر بن الخطاب، إلى أبي عبيدة بن الجراح ومُعاذ بن جبل:

سلامٌ عليكما، فإني أحمَدُ إليكما الله الذي لا إله إلا هو.. أما بعد

فقد جاءني كتابكما، تزعمان أنه بلغكما أني وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يدىَّ الصديقُ والعدوّ، والشريفُ والوضيعُ، وكتبتما: أن انظر كيف أنت يا عمر عند ذلك؟ وإنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

وكتبتما تُحَذراني ما حُذّرت به الأمم قبلنا، وقديمًا كان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس: يُقربان كلَّ بعيد، ويُبْليان كلَّ جديد، ويأتيان بكلِّ موعود، حتى يصير الناسُ إلى منازلهم، من الجنة أو النار، ثم تُوفَّى كلُّ نفس بما كسَبَتْ، إنَّ الله سريع الحساب.

وكتبتما تزعمان أن أمر هذه الأمة يرجع في آخر زمانها: أنْ يكونَ إخوان العلانية أعداء السَّريرة، ولستم بذلك، وليس هذا ذلك الزمان، ولكن زمان ذلك حين تظهر

الرغبة والرّهبة، فتكون رغبة بعض الناس إلى بعضٍ إصْلاحَ دينهم، ورهبة بعض الناس إصلاحَ دنياهم.

وكتبتما تُعَوّذاني بالله أن أنزل كتابكما مني سوى المنزل الذي نزل من قلوبكما، وإنما كتبتما نصيحَةً لي، وقد صدَّقتكما، فتعهداني منكما بكتاب، ولا غنى بي عنكما.

من خطبة لعثمان بن عفان رضى الله عنه، قال:

إنَّ لكلِّ شيء آفة، وإن لكل نعمة عاهة، وإن عاهة هذا الدين عَيَّابون ظنَّانون، يُظهرون لكم ما تُحبون، ويُسرون ما تكرهون، يقولون لكم وتقولون، طغَامٌ مثلُ النَّعام، يتبعون أوَّلَ ناعِق، أحبُّ مواردهم إليهم النَّـازحُ.

لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثر مما نقمتم عليَّ، ولكنه وَقَمَكمْ وقمَعَكمْ، وزجَرَكمْ زجْرَ النَّعام المُخزَّمه، والله إنى لأقرب ناصِرًا، وأعَزُّ نفرا، وأقمَنُ – إن قلتُ: هَلمَّ – أنْ تُجابَ دعوتي، من عمر.

هل تفقدون من حقوقكم شيئـًا ؟ فما لي لا أفعل في الحق ما أشاء ؟ إذًا فلم كنت إمامًا ؟!

من خطبة لعلي رضى الله عنه، يقولُ فيها:

أما بعد، فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرقت باطلاع، وإن المضمار اليوم، وغدًا السباق.

ألا وإنكم في أيام مَهَل، ومن ورائه أجَلٌ، فمن أخلص في أيام مَهله فقد فاز، ومن قصَّر في أيام مَهَله، قبلَ حُضور أجله، فقد خسر عمله، وضرَّه أمَله.

ألا فاعملوا لله في الرغبة، كما تعملون له في الرهبة.

ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبُها، ولا كالنار نام هاربُها.

ألا وإنه مَن لم ينفعه الحقُّ ضرّه الباطلُ، ومن لم يستقم به الهُدى يَجُرْ به الضلال.

ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن، ودُللتم على الزَّاد.

ألا وإنَّ أخوف ما أخاف عليكم اتبَّاع الهوى، وطولُ الأملِ.

المقالُ الواحِدُ والعشرون:

كُلِّفَ سيدنا رَسولُ الله صَلَّى الله عليه وسَلَّمَ بالرسالة بَعْدَ أن أتمَّ الأربَعينَ عاما، ورغم أنه كان الصادقَ الأمين قبل أن يُبْعَث، إلا أنه حُورب ولاقى معارضةً شديدة حتى من أقرب الناس إليه، ليس في مكة فقط، بل حتى بالطائف، ونحن نتذكر دعائه الرائع وشكواه إلى الله، وهو يقول، بعد أن نزفت قدماه:

«اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلاَ أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ».

إن هذا الدعاء الجميل الرائع، الذي يحرك المشاعر والوجدان، يعتبر نقطة تحول في جزيرة العرب، فقد نقل العبادة نقلة خالصة لله تعالى، إنه وَضَّحَ العلاقة بين العبد وربه، وضح حجم الإخلاص، والرجاء، إنه درس في العقيدة والعبادة والإخلاص لله سبحانه وتتعالى.

والشيء العجيب، أنه بعد أن مات إبراهيم بن النبي صلوات الله عليه، فرح في ذلك بعض من أهله ومعارفه، حتى أن العاص بن وائل، أطلق على رسول الله اسم الأبتر، أي المنقطع عن العقب حيث لا ولد له، فنزل في ذلك سورة من ثلاث آيات، لكنها غاية في الحق والإنصاف، تقول: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر**﴾

إنا أعطيناك يا محمد، الكوثر وهو نهر في الجنة، والكوثر هو الخير الكثير من النبوة والفضل، أعطيناك ما هو أكثر من الولد، وما سيرفع ذكرك وشأنك عن كل ممن عايروك وأهانوك.

شانئك أي- مبغضك، هو الأبتر أي المنقطع عن كل خير أو المنقطع من العقب.

والفعل أعطى، من الأفعال التي تتعدى إلى مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر مثل (كسا، منع، منح، سأل،..)

إنَّا أعْطيْناكَ الكوْثرَ

إنا: إنَّ حرف توكيد ونصب، نا: نحن تعود إلى الربوبية

أعطيناك: أعطى فعل ماض ينصب مفعولين، ك: يا محمد، في محل نصب مفعول أول.

الكوثر: مفعول ثان، منصوب بالفتحة.

وقد ذكرني ذلك، بسؤال لمدرس اللغة العربية، أثناء المرحلة الثانوية، يقول: اذكر جملة فيها فعل يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل، وكانت الإجابة هي: أعْلمَنِي زيْدُ عَليا مُجدا

فالفعل: أعلم يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل.

أثناء قراءَتي لسورة نوح، كانت الآية ٢٥ تقول: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾

خطيئاتهم: خطاياهم

أغرقوا: بالطوفان

فأدخلوا نارا: عوقبوا بها عقب الإغراق بالماء.

من دون الله: أى غير الله.

أنصارا: يمنعون عنهم العذاب.

ذهب الكوفيون إلى أن «خطايا» جمع خطيئة على وزن فعَالى، وإليه ذهب الخليل بن أحمد.

وذهب البصريون إلى أن «خطايا» على وزن فعائِلَ.

أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا: إنما قلنا إن وزنه فعالى، وذلك لأن الأصل أن يقال في جمع خطيئة «خطايىء» مثل خطايع، إلا أنه قُدِّمَت الهمزة على الياء، لئلا يؤدي إلى إبدال الياء همزة، كما تبدل في صحيفة وصحائف وكتيبة وكتائب لوقوعها

قبل الطرف بحرف، لأنهم يجرون ما قبل الطرف بحرف من هذا النوع مجرى الطرف في الإبدال، وهم يبدلون من الياء إذا وقعت طرفًا وقبلها ألف زائدة همزة.

وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا: إنما قلنا إن وزنه فعائل، وذلك لأن خطايا جمع خطيئة، وخطيئة على وزن فعيلة، وفعيلة يجمع على فعائل، والأصل فيه أن يقال « خطايئ « مثل خطايع، ثم أبدلوا من الياء همزة، كما أبدلوها في صحيفة وصحائف، فصار خطائىء مثل خطاعي.

قد تحفظ آية قرآنية من كتاب الله، وتمر بك الأيام، ثم تكتشف فجأة – أخي العزيز – أن بها إعجازًا علميا، أو لغويًا، وتتعجب، كيف بعد هذه السنين الطويلة وفجأة تكتشف ذلك !! وقد حدث ذلك كثيرًا معي، وسوف أضع يدك، الآن، على واحدةٍ منها.

أحفظ سورة يس منذ بداية المرحلة الإعدادية، ولكنني لم ألحظ إعجازاً بالآية (٢٣) إلا وأنا في الثلاثين من العمر، والآية تقول: ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾.

انظر إلى الآية – أخي الكريم – وحاول أن تضع يدك على الإعجاز اللغوي قبل أن أحدثك عنه.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة «هذا ولم يرد حديث صحيح يعتمد عليه في تعيين هذه الأسماء.

إذا سلمنا مبدئيًا أن لله سبحانه وتعالى تسعة وتسعون اسما، أليس من الإبداع والإعجاز أن يأتي اسم (الرحمن) بالذات مع كلمة (ضر)، وبالطبع لن أذكرك بالطباق والمقابلة بين الضر والرحمة، لكن سأذكرك بأن صاحب الإرادة هنا هو الله سبحانه وتعالى، ولا يأت من الله إلا الرحمة والخير.

وقد قال الله سبحانه وتعالى في محكم آياته، آية ١٨٠ من سورة الأعراف: **﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**.

وجدير بالذكر أن نقول أن دعاء الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى يكون دعاء ثناء، ودعاء طلب واستغاثة، أي تمجيد الله سبحانه وتعالى والثناء عليه، وقد يكون دعاء طلب بحيث يأتي السائل بالاسم الذي يقتضيه المطلوب، ومن المهم أن نذكر أن أسماء الله الحسنى لم يرد تعيينها في حديث صحيح، وتوجد اجتهادات كثيرة لبعض العلماء في استخراج أسماء الله الحسنى من الكتاب والسنة، وأكد بعضهم أن أسماء الله الحسنى ليست بمنحصرة في التسعة والتسعين اسما، ولو كان المراد الحصر لكانت العبارة السابقة تقول: «إن أسماء الله تسعة وتسعون اسماً من أحصاها دخل الجنة»، وهناك دليل آخر، وهو حديث أبى هريرة:

«ما أصاب أحد قط همٌ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حُكمك، عَدْل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدله مكانه فرحاً، فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها ؟ فقال: «بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها».

لكن ما معنى الإحصاء المذكور في الحديث ؟

الإحصاء يحتمل وجوها، منها:

١ – أن يعدها المسلم حتى يستوفيها، أي يدعو الله بها كلها.

٢ – قد يقصد بها الإطاقة كقوله سبحانه وتعالى: «علم أن لن تحصوه».

٣ – أن تحيط بمعانيها من قول العرب فلان ذو حصاة أي ذو عقل وحصافة، وقيل: معنى أحصاها أي عمل بها.

لكن المعنى المتفق عليه هو أحصاها أي عدها وحفظها وآمن بها وعمل بها ومعرفتها والقيام بعبوديتها، والله أعلم.

والتسعة والتسعون اسماً، هي:

| الله الذي لا إله إلا هو | الرحمن | الرحيم | الملك | القدوس | السلام |المؤمن |المهيمن العزيز | الجبار | المتكبر | الخالق | البارئ | المصور | الغفار | القهار | الوهاب | الرزاق | الفتاح | العليم | القابض | الباسط | الخافض | الرافع | المعز |

المذل | السميع |البصير | الحكم | العدل | اللطيف | الخبير | الحليم | العظيم | الغفور | الشكور | العلي | الكبير | الحفيظ | المقيت | الحسيب | الجليل | الكريم | الرقيب | المجيب | الواسع | الحكيم | الودود | المجيد | الباعث | الشهيد | الحق | الوكيل | القوي | المتين | الولي | الحميد | المحصي | المبدئ | المعيد ا المحيي | المميت | الحي | القيوم | الواجد | الماجد | الواحد | الأحد | الصمد | القادر | المقتدر | المقدم | المؤخر | الأول | الآخر | الظاهر | الباطن | الوالي | المتعالي | البر | التواب | المنتقم | العفو | الرءوف | مالك الملك | ذو الجلال والإكرام | المقسط | الجامع |الغني | المغني | المانع | الضار | النافع | النور | الهادي | البديع | الباقي | الوارث | الرشيد | الصبور

المقالُ الثاني والعشرون:

تعرضنا في المقال السابق، لقوله سبحانه وتعالى في محكم آياته، آية ٠٨١ من سورة الأعراف:

«وللَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ».

ولنرى كلمة «لحد» في المعجم الوجيز، نجد:
لَحَدَ: لحد الميتَ لَحْدًا، أي دفنه في اللحد.
ألحد فلان: أي عَدَلَ عن الحق، وأدخل فيه ما ليس منه.
ألحد في الدين: أي طعن فيه
التحد إليه: أي مال إليه والتجأ، فهو مُلتحِدٌ.
اللحدُ: الشقُ يكون في جانب القبر للميت، جمعه ألحاد ولحود.
الملحد: الطاعن في الدين، المائل عنه، جمعه ملحدون وملاحده.

ودعونا الآن نناقش معنى الإلحاد، في هذه الآيات، فإذا سلمنا بأن الإلحاد هو الميل والبعد عن الهدف، فمن المتداول بيننا كلمة «ملحد» ونقصد بها البعد عن الدين وإنكاره، واللحد في القبر حيث يأخذ الجثمان ناحية منه، وعموماً، الإلحاد في كلام الله يأخذ معنى من المعان الآتية:

١ – أن تقرن أسمائه سبحانه وتعالى لغيره، فقد سميت الأوثان بها في الجاهلية، حيث اشتقوا اللات من الله، واشتقوا العزى من العزيز، كما اشتقوا من المنان مناة.
٢ – إنكار بعض الصفات وتعطيلها.
٣ – جعل بعض الصفات مشابهة لصفات المخلوقين.
٤ – تسمية الله سبحانه وتعالى بما لم يسم نفسه به.

وقد سأل أحد الأصدقاء، ذات مرة، هذا السؤال: هل يصح أن نسم الله باسم «مهندس الكون»؟، وسأل آخر: هل من أسماء الله الحسنى اسم «الدهر» ؟ وعليه نقول:

إن أسماء الله الحسنى توقيفية، ولا مجال للعقل والاجتهاد فيها، حيث تؤخذ الأسماء توقيفاً من الكتاب والسنة، كذلك إجماع الأمة، ولا يجوز إطلاق الاسم من طريق القياس، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾ الإسراء (٣٦).

الدهر: ليس من أسماء الله سبحانه وتعالى، وأما قوله، صلى الله عليه وسلم، أن الله سبحانه وتعالى قال: «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار» فقد قال الخطابي في معناه: أنا صاحب الدهر ومدبر الأمور التي ينسبونها إلى الدهر، فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور فقد جعل ظرف الزمان سببا وتدبيرا، وهذا شرك.

تنويه هام:

آيات الذكر الحكيم نعلمنا أن من أسماء الله عز وجل مالا يطلق إلا مقترنًا بمقابله، فإذا أطلق وحده أعطى معان ناقصة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، ومنها على سبيل المثال: المعطي المانع، الضار النافع، القابض الباسط، المعز المذل، الخافض الرافع،... حيث لا يطلق على الله عز وجل [المانع، الضار، القابض، المذل، الخافض] كلا على انفراده، بل لابد من ازدواجها بمقابلاتها، فقد جاء الوحي بها هكذا، ومن ذلك المنتقم لم يأت في القرآن إلا مضافاً إلى «ذو» كقوله سبحانه: ﴿**عزيز ذو انتقام**﴾ آل عمران (٤)، أو مقيداً بالمجرمين كقوله تعالى: ﴿**إنا من المجرمين منتقمون**﴾ السجدة (٢٢).

والآن علينا توضيح بعض النقاط الهامة، مثل:

١ – هل يجوز أن يشتق لله سبحانه وتعالى أسماءً من صفاته وأفعاله ؟

بالطبع لا يجوز، فالآيات الدالة على الصفات والأفعال التي وردت في القرآن الكريم كثيرة، مثل:

﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ آل عمران (٥٤)

﴿نسوا الله فنسيهم﴾ التوبة (٦٧)

لا يجوز أن يطلق على الله ماكر وناس، ولا يقال الله يمكر وينسى، على سبيل الإطلاق.

٢ – العلاقة ما بين أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى:

نحن نعرف أن كل اسم يتضمن لصفة، ولما كانت أفعال الله، كذلك أقواله وعلمه وعلومه لا منتهى لها، حيث يقول في محكم التنزيل:

﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾ لقمان (٢٧).

﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾، حيث آية الكرسي بسورة البقرة، تقول:

﴿اللَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾. البقرة (٥٥٢) .

ولتوضيح ذلك، نقول:

﴿وجاء ربك والملائكة صفا﴾ الفجر (٢٢)، جاء، فعل، هل يصح أن نأخذ منه اسما لله، أو صفة المجيء ؟!! لا يصح بالطبع.

يقول بن القيم: لا يلزم من الأخبار عنه بالفعل مقيدًا أن يشتق له منه اسم مطلق، كما في الآية: ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ البروج (٢١). حيث البطش هنا مقرون بنوع من العذاب، فهو أسلوبُ عقاب.

سؤال مهم:

ماهى دلالة الأسماء الحسنى لله سبحانه وتعالى ؟

أسماءُ الله الحسنى تأتى على أنواع ثلاثة، من الدلالات، هي:

١ – الدلالة على الذات الإلهية.
٢ – الدلالة على الصفات، مثل:
الاسم العلم (الله) وهو المتضمن لجميع معاني الأسماء.
ما يتضمن صفة لذات الله، مثل (البصير).
ما يتضمن صفة لفعل كاسمه (المصور).

ما يتضمن تنزيهه سبحانه وتعالى، وتقدسه عن النواقص والعيوب، مثل (القدوس – السلام – المهيمن).

٣ – الدلالة على صفات غير مشتقة التزامًا، مثل دلالة اسمه سبحانه وتعالى (الرزاق) حيث تدل على ذاته سبحانه وتعالى مطابقة، وعلى رزقه تضمناً وعلى صفة الرازق التزاماً.

أما أسماء غيره سبحانه وتعالى فلا تدل إلا على الذات، فقد يسمى الرجل كريماً وهو بخيل، وحكيماً وهو أحمق، أما الله سبحانه وتعالى فلا يخالف اسم له صفة، ولا صفة له اسما.

سؤال آخر: هل تشابه أسماء المخلوقين أسماء الخالق ؟

قد سمى الله سبحانه وتعالى نفسه بأسماء، كما سمى بعض خلقه بنفس الأسماء، فقد سمى نفسه: [عليماً، حليماً، رؤوفا، رحيماً، سميعاً، بصيرا، عزيزا، ملكا، مؤمنا، جبارا، متكبرا،...].

وقد سمى بعض عباده بهذه الأسماء، فقال: [بالمؤمنين رؤوف رحيم، فبشرناه بغلام حليم، فجعلناه سميعاً بصيرا، وقالت امرأة العزيز،...]، ومن المعلوم أن أسماء الله سبحانه وتعالى لا تماثل أسماء المخلوقين.

سؤال أخير: ما هو اسم الله الأعظم ؟

اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به لا يرد، حدث حوله خلاف كثير، فمن العلماء

من أنكره، وقال بعضهم: «لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض، وقد قال بن حبان: «الأعظمية الواردة في الأخبار إنما يراد بها مزيد ثواب الداعي بذلك».

وقال آخرون: استأثر الله سبحانه وتعالى بعلم الاسم الأعظم،ولم يطلع عليه أحدا، ومما اجتهد به بعض العلماء:

١ – إن الاسم الأعظم هو (الله)، لأنه لم يطلق على غيره.
٢ – إنه (الله الرحمن الرحيم) وهو مستنتج من حديث السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها.
٣ – إنه (الرحمن الرحيم الحي القيوم).
٤ – الحي القيوم.
٥ – الحنان المنان، بديع السموات والأرض.
٦ – ذو الجلال والإكرام.
٧ – رب.
٨ – دعوة ذي النون: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾.

المقالُ الثالثُ والعشرون:

والآن بعد أن راجعنا أسماءَ اللهِ الحُسْنى، وقبل أن نراجع الميزان الصرفي، نرى أنه من الضروري مراجعة قضايا تصريف الأفعال، والصرف لغة معناه التغيير ورد الشيء عن غير وجهه، ومنه تصريف الرياح أي تغييرها، واصطلاحا معناه تحويل الأصل الواحد إلى أمثلة مختلفة لمعان مقصودة لا تحصل إلا بها، نحو تحويل صيغة الفعل إلى اسم الفاعل للدلالة على من وقع منه الفعل، أو إلى اسم المفعول للدلالة على من وقع عليه الفعل، وهذا هو المعنى التطبيقي لعلم الصرف.

لكن ما هي أقسام الفعل ؟

تعددت أقسام الفعل إلى: (الماضي والمضارع والأمر – الصحيح والمعتل – المجرد والمزيد – الجامد والمتصرف – المتعدي واللازم – المبني للمعلوم والمبني للمجهول – المؤكد وغير المؤكد).

١ – الماضي والمضارع والأمر:

الفعل الماضي: هو ما دل على حدوث حدث قبل زمن المتكلم، نحو: قام، تحدث، أمر، أكل، وعلامة الفعل الماضي هي قبول تاء الفاعل، نحو: قمت، تحدثت، أمرت، أكلت، كذلك قبول تاء التأنيث نحو: قامتْ، تحدثتْ، أمرتْ وأكلتْ

الفعل المضارع: هو ما دل على حدث أثناء زمن التكلم أو بعده، فهو صالح لزمني الحال والمستقبل، نحو: يقرأ، يكتب، حيث يجوز أن تكون الدلالة الزمنية الصرفية المستفادة من صيغة (يفعل) حالا، كذلك مستقبلا.

توجد سوابق زمنية معينة تتعين معها صيغة يفعل للدلالة على الزمن المستقبل نحو: السين، سوف ولن النافية، مثل:

﴿سَيُطَوَّقونَ مَا بَخِلوا به يَوْمَ القيامَةِ﴾ آل عمران (١٨٠).

﴿وَسَوْفَ يَعْلمونَ حِينَ يَرَوْنَ العَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبيلا﴾ الفرقان (٢٤).

﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ ولا أَوْلادُكُمْ﴾ الممتحنة (٣).

ولابد للفعل المضارع أن يكون مبدوءا بحرف منت أحرف المضارعة وهى: أ، ن، ي، ت. وعلامة الفعل المضارع هي قبوله لـ (لم) النافية الجازمة، وذلك نحو قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هوَ اللهُ أَحَدٌ * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كُفُوًا أحد﴾ سورة الإخلاص.

فعل الأمر: وهو ما دل على طلب إحداث حدث بعد زمن التكلم نحو: قمْ، اكتبْ، اجتهدْ.

وعلامة فعل الأمر أن يدل على الطلب مع قبوله لنون التوكيد وياء المخاطبة، وذلك نحو:

﴿يَا مَرْيَمُ اقنتي لربِّكِ واسجدي واركعي مع الراكعينَ﴾ آل عمران (٤٣).

٢ – الفعل الصحيحُ والفعل المُعْتلُ:

يقسم النحاة الفعل بالنظر إلى خلو أصوله من حروف العلة، وهي (الألف، الواو، الياء) أو اتصالها بها إلى قسمين هما: الصحيح والمعتل.

أولا: **الفعل الصحيح**: وهو ما خلت أصوله من أحد حروف العلة، وذلك نحو: لعب، كتب، جلس،... وينقسم إلى: (سالم – مضعَّف – مهموز)

الفعل السالم: ما سلمت أصوله من أحد حروف العلة والهمزة والتضعيف، وذلك نحو: كتب، جلس، ضرب وقعد.

الفعل المضعف: هو ما حدث فيه تضعيف لأحد أصوله، وينقسم إلى:

المضعف الثلاثي ومزيده: وهو ما كانت عينه ولامه من جنس واحد، نحو: شدَّ، مَدَّ، هَدَّ، فَرَّ، اشتدَّ، امتدَّ واستمَدَّ

مضعف الرباعي: وهو ما كانت فاؤه ولامه الأولى من جنس واحد، وعينه ولامه الثانية من جنس واحد، وذلك نحو: زلزل، كبكب، قلقل، وعسعس.

المهموز: وهو ما كان أحد أصوله همزة، وذلك نحو: أكل، سأم، وقرأ

الفعل المعتل: وهو ما كان أحد أصوله حرف علة، وذلك نحو: وعد، نام، هدى،

وهو ينقسم إلى أربعة أقسام، هي: [مثال – أجوف – ناقص – لفيف]

المثال: ما كانت فاء فعله حرف علة، وذلك نحو: وعد، يسر. وقد سمي مثالا لأنه يماثل الصحيح في عدم إعلان ماضيه.

الأجوف: ما كانت عين فعله حرف علة، وذلك نحو: نام، باع، سمى. ويسمى أيضا ذا الثلاثة أحرف، فيقال: نمت، بعت وقلت.

الناقص: ما كانت لام فعله حرف علة، وذلك نحو: غزا، رمى، دعا، سعى، سمى، وسمى ناقصا لنقصانه بحذف آخره ويسمى أيضا ذا الأربعة، لأنه عند إسناده لتاء الفاعل يصير على أربعة أحرف، وذلك نحو: غزوت ورميت.

اللفيف: وهو ما اجتمع في أصوله حرفا علة، وينقسم إلى:

١ – **اللفيف المفروق**: وهو ما اعتلت فاؤه ولامه، وذلك لأن الحرف الصحيح منه يفرق بين حرفي العلة.

٢ – **اللفيف المقرون**: وهو ما اعتلت عينه ولامه، وذلك نحو: طوى، روى، هوى، سمى مقرونا لاقتران حرفي العلة معا.

٣ – **المجرد والمزيـــد**:

الفعل المجرد: هو ما كانت جميع حروفه أصلية، وذلك نحو: لعب، شرب، ضرب، وقد يسقط من هذه الأحرف حرف لعلة صرفية، وذلك نحو: قل، صم، نم، ارم، وقد يكون الفعل المجرد ثلاثيا، وذلك نحو: فهم، علم، كما قد يكون رباعيا، وذلك نحو: دحرج.

أبواب المجرد: أبواب الثلاثي المجرد: باعتبار ماضيه هى ثلاثة أبواب فقط، لأنه دائما مفتوح الفاء، أما عينه فقد تكون مفتوحة، أو مكسورة، أو مضمومة، وباعتبار الماضي مع المضارع له ستة أبواب، لأن عين المضارع إما مضمومة أو مفتوحة أو مكسورة، وهذه الأبواب هى:

- **باب (فَعَلَ يَفْعُلُ)**: وذلك نحو: نصر يَنْصُرُ، وقعد يَقْعُدُ،وأخذ يأخذ، وقال يقول.
- **باب (فعَلَ يَفْعِلُ)**: وذلك نحو: ضَرَبَ يَضْرِبُ، وجلس يجْلِسُ ووعد يعِدُ.

- **باب (فعِلَ يَفْعَلُ)**: وذلك نحو: ذَهَبَ يَذْهَبُ، وفتح يفتح، ووضع يضع.
- **باب (فَعِلَ يَفْعَلُ)**: وذلك نحو: فَرِحَ يَفْرَحُ، علم يعلم، خاف يخاف.
- **باب (فَعِلَ يَفْعِلُ)**: وذلك نحو: حَسِبَ يَحْسِبُ، نَعِمَ يَنْعِمُ.
- **باب (فَعُلَ يَفْعُلُ)**: وذلك نحو: شَرُفَ يشرُفُ، كرم يكرم، جرؤ يجرؤ.

لنتحدث الآن عن نائب الفاعل، في حالة ما إذا كان ظرفا أو جارا ومجرورا أو مصدرا، ولنعطي بعض الأمثلة على ذلك:

١ – المفعول به نائب فاعل، والفعل متعدي مبني للمجهول، مثل «نُقِلَ الخبَرُ»، المفعول الأول نائب فاعل في المثال « يُظنُّ القطارُ مُتأخرا.
٢ – نائب الفاعل في هذا المثال، ظرفا «سُهِرَتُ ليلةٌ قمراءُ».
٣ – نائب الفاعل جارا ومجرورا، مثل «ذُهِبَ إلى منزلك».
٤ – هُجِمَ هجومٌ عنيف، نرى نائب الفاعل هنا مصدرا مختصا متصرفا.

مُراجعة الميزان الصرفي:

١ – يوزن الثلاثي المجرد بوضع الفاء من «فعل» مكان الحرف الأول، والعين مكان الثاني، واللام مكان الثالث، وتضبط أحرف الميزان على حسب ضبط أحرف الموزون دائما، مثل: شَرِبَ: فَعِلَ.
٢ – يوزن الرباعي والخماسي المجردان بزيادة لام في الأول، ولامين في الثاني على أحرف فعل م، مثل: دحرج: فعلل، سَفرجلُ: فعلَّلُ.
٣ – إذا كانت الكلمة مزيدة بتضعيف حرف ضُعِّفَ الحرف المقابل له في الميزان، مثل: هَذَّبَ: فَعَّلَ، قسَّمَ: فعَّلَ.
٤ – إذا اشتملت الكلمة على حرف زائد، أو أكثر، وُضِعَ الزائد مكانه في الميزان، مثل: لاعَبَ: فاعَلَ، انصرف: انفعل.
٥ – إذا حصل في الكلمة إبدال أو إعلال بالقلب أو التسكين، وُزنت الكلمة على حسب أصلها قبل الإبدال أو الإعلال ولا يُنظر إليهما، مثل: صام: فعل، مَرامُ: مَفْعَلُ.
٦ – إذا حُذفَ من الكلمة بَعْضُ أحْرُفها، حُذِفَ نظير ذلك من الميزان، مثل: قُمْ: فُلْ، يرمونَ: يَفْعونَ، زنَة: عِلَة.

المقالُ الرابعُ والعشرون:

أثناء حضوري إحدى الأمسيات الثقافية التي يديرها بيت ثقافة طلخا، وذلك بمجلس مدينة طلخا، كانت تلاوة الشيخ زكريا آيات من بداية سورة الرحمن، حيث تقول:

﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)﴾.

وأثناء الاستراحةِ سألني صديق عن معنى قوله سبحانه وتعالى « عَلَّمَهُ البَيَانَ « فقلت له:

حدثتنا كتب البلاغة عن شخصيتين هامتين يوضحان ذلك وهما باقل وهو شخص يضرب به المثل في العجز عن الإبانة عما في النفس، فيقال: أعيى من باقل! أما الآخر فهو سَحْبَان وهو رجل يضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة والبيان فعندما يراد أن يمتدح شخص يقال: أبلغ من سحبان وائل (وائل: هي قبيلة سحبان التي ينتسب إليها).

أبدى صديقي اهتماما، وقال: أعيا من باقل ؟! ماذا فعل باقل هذا ؟ قلت له باقل أعيا أو أحمق العرب، لأنهم يقولون كانت أمه تلقنه اسمه طوال النهار وعند المساء ينسى من هو ولما يئست منه وضعت في رقبته قلادة مكتوب عليها أسمه وذات ليله حينما نام، لبس القلادة أخوه وعند الصباح رأى القلادة في رقبة أخيه فسأله متعجبا: أنت أنا فمن أكون أنا ؟! لكنه له قصة مشهورة والتي خرج بسببها هذا المثل الجميل إلينا، فقد ذهب باقل إلى السوق ليشترى غزالا، وفي السوق اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً، ومسك الحبل بيده جيدا فهو يعلم أن الغزال إذا انطلق تجاه الصحراء فلن يتمكن من استعادته، فقابله بعض الأعْرَابِ وسأله أحدُهم: بكم اشتريته ؟ أرادَ أنْ يقولَ بأحد عشر فلم يستطع، ففتح كفيّه وفرّق أصابعه، وأدْلعَ لِسَانه يشير بذلك إلى أحد عشر، فأفلت الحبل من بين أصابعه وانطلق الغزالُ يَعْدو نحْوَ الصَحَرَاءَ بسرعةٍ عجيبَةٍ بين دَهْشَةِ باقل وسُخريةِ الأعراب، وخرج إلينا المثل الجميل «أعيا من باقل»..

كانتْ إمَاراتُ الدَهْشة باديةً على جبين صَديقي توحي بأنه يسمع كلاما في الفصَاحَة لأوَّل مَرَّة، حَيْثُ اعتدل في جلسَته، ثم قالَ: استحلفك بالله أن تكمل مقالاتكَ «إلى عَشاقَ لغة الضاد» فنحن في أشَد الحاجة إليها، فوَعَدْتهُ، فقالَ متى ؟ قلت الآن.

قلت لصديقي العزيز: اعلم أن البلاغة كما استمعنا إليها في سورة الرحمن لها عناصرها التي هي لفظ ومعنى، وتأليف للألفاظ يمنحها قوة وتأثيرا وحُسْناً، ثم دقة في اختيار الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام ومواقعه وموضوعاته وحَال السامعين. ومن أمثلة ذلك قول المتنبي لكافور الإخشيدي في أول قصيدة مَدَحَه بها:

كفى بكَ داءً أن ترى المَوْتَ شافيا وحَسْبُ المنايا أن يَكنَّ أمَانيا

كفي بك: أي كفاك، فالباء زائدة
المنايا: جمع المنية وهى الموت
الأماني: جمع أمنية وهى الشيء الذي نتمناه

يخاطب أبو الطيب نفسه ويقول: كفاك داء رؤيتك الموت شافيا لك، وكفى المنية أن تكون شيئا تتمناه.

وقوله في مدحه أيضا:

وما طرَبي لَّما رأيتك بدعةً لقد كنتُ أرجو أن أراك فأطربُ

هذا البيت يشبه الاستهزاء حيث يقول: طربت عند رؤيتك كما يطرب الإنسان لرؤية المضحكات، قال ابن جنى: لما قرأت على أبي الطيب هذا البيت قلت له: ما زدت على أن جعلت الرجل قردا، فضحك، وكان المتنبي يغلى صدره حقدا على كافور وعلى الأيام التي ألجأته إلى مدحه، فكانت تفر من لسانه كلمات لا يستطيع احتباسها وقديما زلَّ الشعراء لمعنى أو كلمة نفرت سامعيهم، فأخرجت كلامهم عن حد البلاغة، فسأل صديقي أن أضرب له بعض الأمثلة فقلت:

حكت كتب التراث أن أبا النجم دخل على هشام ابن عبد الملك وأنشده:

صَفراءُ قد كادت ولَّما تفعل كأنها في الأفق عَيْنُ الأحْوَل

وكان من سوء حظه أن هشام أحول فأمر بحبسه.

ومدح جرير عبد الملك بن مروان بقصيدة مطلعها:

أتصْحُو أمْ فؤادُكَ غيْرُ صَاحِ عَشِيَّة هَمَّ صَحْبُكَ بالرَوَاحِ

فاستنكر عبد الملك هذا الابتداء وقال له: بل فؤادك أنت.

ونعى علماء الأدب على البحتري أن يبدأ قصيدة ينشدها أمام ممدوحه بقوله: **لكَ الوَيْلُ مِنْ ليلٍ تقاصَرَ آخِرُه**

وعابوا على المتنبي قوله في رثاء أم سيف الدولة:

صلاة اللهِ خالقنا حَنوطٌ على الوجهِ المكفَّنِ بالجَمَالِ

الصلاة: الرحمة
الحنوط: طيب يخلط للميت

يدعو لها بأن تكون رحمة الله لها بمنزلة الحنوط للميت.

قال ابن وكيع: إن وصفه أم الملك بجمال الوجه غير مناسب

نرى من هذه الأمثلة أنه لابد للبليغ من التفكير في المعاني التي تجيش في نفسه، وهذه يجب أن تكون صادقة ذات قيمة وقوة فيها أثر الابتكار وسلامة النظر ودقة الذوق في تنسيق المعاني وحسن ترتيبها.

المقالُ الخامِسُ والعشرون:

قلنا في الحلقة الأخيرة أن أساليبَ البلاغةِ ثلاثة، وسنبدأ اليومَ بالأسلوب العلمي، ثم نتبعه بالأسلوب الخطابي، ثم نختتم بالأسلوب الأدبي الذي سيستغرق منا بعضَ الوقت والمجهود والتفصيل.

١ – الأسلوبُ العلمي: وهو الأهدأ والأكثر احتياجًا إلى المنطق السليم والفكر المستنير، والأكثر بُعْدًا عن الخيال الشعري، لمخاطبته العقل، ومناجاته للفكر، ومن خصائصه الأساسية الوضوح، وتبدو قوته في سطوع بيانه، ورصانة حججه وسلامة الذوق في اختيار الكلمات وحُسن تقرير المعنى من أقرب وجوه الكلام.

ويحسن التنحي عن المجاز ومُحَسِّنات البديع في هذا الأسلوب، إلا ما يجئ عفوا، وأما التشبيه الذي يقصد تقريب الحقائق إلى الأذهان وتوضيحها بذكر مماثلها فهو حسن مقبول في هذا الأسلوب.

انظر إلى الأبيات الأولى من قصيدة «عِداءُ الغرْبِ» بديوان الرحيل المحتوم للشاعر ماهر عبد الواحد، تجد أن الأسلوبَ العلمي السَلس تتابع مع تتابع الأبيات بوضوحه وسطوع حججه وقوة منطقه وحسن تقرير المعاني ومرونة الإقناع:

انظر إلى سرد الحقائق:

عداءُ الغرب للعُربِ قديمُ ... فلا يخدعكَ أسلوبٌ لئيمُ
وَلا تنس وَان طالَ الزَمَانُ ... بأن الغربَ شيطانٌ رجيمُ
وأنَّ العَّمَ سامَ بلا حَياء ... و أنَّ وَبَالهُ شرٌ مُقيمُ
يَبُثُ سُمومَ صُهيونَ بجدٍ ... لِيَسْرى بيننا لَهَبٌ جَحيمُ
أرادَ موتَ ليبيا بالحِصارِ ... وَنحنُ بعَجْزنا بَشرٌ أَثيمُ
هذى عراقنا بالأمسِ ماتت ... وحلَّ بمَوْتها نحسٌ قتيمُ
أولى القَبلتين أنَّت بُعَادًا ... ويَجثم فوقَها حُزنٌ سَقيمُ
وبالجُولانِ جُرْحٌ لا يُعافى ... وعَمَّ ثراها شرٌ وضيمُ
وبالسودانَ تتضِحُ النوايا ... ولكنْ رَبَّكَ دوما كريمُ

أخوكَ بالصومال بلا مُجير وأنت بعَجْزك طفلٌ فطيمُ
تقسمَ شملُنا دنيا وديـن وشبَّ طفلنا وَقحٌ دميمُ
فيَسْعَدُ بَعْضُنا بالمال زهوا ويَسْحَق بعضَنا فقرٌ جَحِيمُ

ثم انظر إلى استخدام المنطق في التحفيز والتحريك:

أيا عُرْبَ العقيدة والدماء ألا صَحْواً فنومكمُ أليمُ
نُدَمَرُ دَوْلةً في إثْر أخرى أبعدَ القتل يهتز الرَمِيمُ
ملكتم طاقة العَصْر وخيره فلا يَمْلِك زمَامَكمُ غَرِيمُ

ثم انظر إلى المنطق في الخطَاب والإقناع:

لماذا الغربَ تلتفون حوله كأنٍ ولاءَه حبٌ حَمِيم
تبدل حالنا من بَعْد عز وَحَلَّ بشملنا ليلٌ بَهِيمُ
وصَارَ المُسْلِمُ اليَوْمَ عَليلا فهل لِعلاجِ مُسلِمِناحَكيم؟!

وقد تمثل الأسلوب العلمي في أوضح صوره، أيضا بقصيدة « أصوات « بديوان الرحيل المحتوم لماهر عبد الواحد، وهو يقول:

إنَّ الهَـواءَ الصافيَ أمَـلٌ وطوْقٌ للنـجَاه
فبرغم كونهِ يَحْتوِي بالخُمْس أكسير الحياه

أكسير الحياة وهو الأكسجين، ويمثل ٢٠٪ تقريباً أي خمس الهواء وزنًا

إفهو الذي به يُنْـقلُ الصَوْتُ في كل اتجاه
وبدونه ما تنـــتقل كلمات تخرُجُ مِنْ شفاه
وبدونه لا يَنطـــلق طيْرٌ يُسَبحُ في فضاه
وبدونه لمْ تلتـفت أذن لأوقات الصلاه
ولذا التـــلوثُ سُبَّةٌ بهوائـنا أوَ بالمـياه
حَيْثُ الهواءُ الفاسِد يَمْتصُ مِنْ زهر سَناه

فالصوت ينقل بالهواء على شكل تضاغطات وتخلخلات، فينتقل تأثيرها على طبلة الأذن فنسمع الصوت.

أو انظر إلى العمل الذهني (صفحة ١٩) بنفس الديوان:

أعْمَالُ الذهْنِ قوانينٌ أحْكامٌ صَارَتْ تبْويـبَا
ندَواتُ التدريبَ الدائم دَوَراتٌ كانتْ ترتيـبَا
تنظيمٌ للبَحْثِ العِلمِي تحْتاجُ مَهامًا تعْريـبَا

أما الأسلوب العلمي بالعمل الروائي فنراه ممثلا في أجمل صوره برواية «فتى المظلات المصري» حيث نجده صفحة ١٦ يقول:

تقهقر صاحبنا مقتربا من مدخل النفق وجلس في ظل المدخل، مستمتعاً بتيار الهواء المنعش، وهو يراقب المنظر الخارجي، وأخذ يفكر في أمر هذا النفق، [من الذي شقه في باطن الأرض؟ وكيف ولماذا؟ إنه ليس غاراً بل نفقا، يبدو كأنبوب طويل يمتد من قلب الصحراء إلى منطقة ما بجوار النيل، هل بناه الجدود ليصل الوادي بالصحراء؟ وإن كان ذلك حقيقة فلماذا؟ هل ذلك من أجل خطط حربية؟ أم من أجل توصيل ماء النيل الفائض إلى الصحراء أثناء الفيضان لنقل الماء والطمي إليها؟ أم يكون ذلك من أجل نقل بعض الكنوز وإقامة بعض المقابر بعيدا في قلب الصحراء، حيث لا يوجد لصوص مقابر؟ وإذا صح ذلك فقد وطأت الأقدام هذا المكان من قبل، ويؤكد ذلك مقبرة المومياوات،] ثم انظر إلى الأسلوب العلمي في التعامل مع الأرض [إن هؤلاء الفراعنة العظام استصلحوا الأرض وزرعوها، وبنوا معابدهم بالصحراء، إنهم أعطوا الصحراء حقها، حيث قطعوا الصخور الضخمة لبناء المعابد، وقطعوا ألواح الرخام الأسواني، استغلوا جبال الجرانيت في عمل تماثيلهم ومسلاتهم، حولوا جبل أبى سنبل إلى معبد أسطوري، استخرجوا الذهب من صحراء مصر، صهروا الحديد والنحاس وكل المعادن المعروفة، أعطوا الصحراء حقها فأعطتهم خيرها]

المَقالُ السَّادسُ والعشرون:

٢ – الأسلوبُ الخطابي، تبرُزُ فيه قوة المَعَاني، والألفاظِ، وقوة الحُجَةِ والبُرْهان، وقوة العَقلِ الخصيب، وهنا يتحَدَثُ الخطيبُ إلى إرادة سامعيه لإثارة عزائمهم واستنهاضَ هممهم، وكلما كان هذا الأسلوبُ أكثرَ جَمَالا ووضوحًا كلما كانَ أكثرَ تأثيرا ووصولا إلى قرار النفوس، كما أن منزلة الخطيب تلعَبُ دَوْرا هامًا في التأثير في نفوس سَامعيه والمُعْترضين، كذلك سطوعُ حُجَّتِهِ ونبراتُ صَوْتِهِ وحُسْنُ إلقائِهِ، كلها مؤثراتٌ هامَة.

ومِنْ مُمَيزاتِ الأسْلوبِ الخطابي التكرار، واستعمالُ المترادفات، وضَرْبُ الأمْثال، واختيار الكلماتِ الجزلة ذات الرنين، ويَحْسُنُ فيه أنْ تتعَاقبَ ضروبُ التعبير من إخبار إلى استفهام إلى تعجبٍ إلى استنكار، وأن تكونَ مواطنُ الوَقفِ فيه قوية شافية للنفس.

دعونا الآنَ نرى أحَدَ أمثلةِ الأسْلوبِ الخطابي ونطبقُ عليه خصَائِصَ هذا الأسلوب، فنجد في روايةِ فتى المظلاتِ المصري يَلتزمُ أيمنُ بهذه الخصَائِص في خطابِه الذي ألقاه في حفل تكريمه (صفحة ١٨) فيقول فيه: [أيُّهَا المِصْريونَ، يا أصْحَابَ العبور العظيم، يا حَفدَة أكبَرَ حضارتين عَبْرَ التاريخ، يا مَنْ وَصَلَ قمْحُ جدودِكم ليطعِمَ الجيَاعَ عَبْرَ البحار منذ آلاف السنين، حتى أيام قليلةٍ كنت مستغرقا في غفوتي، وفجأة تغير كياني واستيقظت من ثباتي، ألقتني رياح الخماسين في قلبِ الصَحَراءَ الشرقيَّةِ بمظلتي، وبينما أنا قابعٌ ليلا وحيداً بين نوْم ويقظةٍ، يَحُوطني السكونُ التام، إذ خيل إلىّ أني أرى مَوْكِباً يتوسَطه فِرْعَوْنُ مِصْرَ بملابسَهِ البسيطة الأنيقة، وبعد أنْ وَصَمَني بالحفيدِ النائِم العاق، الذي أضاعَ القمْحَ، وترَكَ صَوَامعَ الغلال فارغة، طلبَ أن نحَرِّرَ الأرضَ من التصحر ومن الأعداء،و أنْ نعْبُرَ بها إلى الخضرةِ والإنتاج، طلبَ أنْ نَعْبُرَ من الوادي الضيِّقِ إلى وادٍ أكثر فسحة واتساعاً، طلب استرداد الكنوز والآثار المنهوبة والمهربة، طلب استرجاع الأموال المسروقة،

طلب تطهير مصر من دنس الصهاينة، طلب أن نعلن الحرب على ظاهرة القيم المقلوبة، طلب الاهتمام بالشباب، والاهتمام بصعيد مصر، والاهتمام بسيناء، وأن نساير العصر ولا نتخلف عنه، طلب تحقيق العدالة بين المصريين، طلب الكثير والكثير، ولذلك فأنتم أيها الآباء والأخوة ترون أننا جميعا مطالبون بالمحافظة على الأمانة التي في أعناقنا، والمحافظة على اسم مصر عالياً. وعلى جيش مصر قوياً، دعونا نرضى الجدود، نرضى أكتوبر، نرضى القمح، وأولاً وأخيراً نرضى الله كي يرضَى الله عنا].

وقد تتحول القصيدة إلى خطاب، كما حدث معي عند إلقائي قصيدة انقسام، حيث تحولت إلى خطاب حماسي بمكتبة مصر بالدقي، وقد اكتشفت بعد ذلك أنها اشتملت على خصائص الأسلوب الخطابي عند مخاطبة الجماهير، مما حولها لخطاب حماسي أيقظ وأشعل وحرك المشاعر، حيث قلت:

أُنْظرْ تجد في كُلِّ بَيْتٍ دَمْعَةً ... لَيْلُ الفراق مَصَائبٌ وبَهيمُ
ضربَ الصفوفَ تعَصُّبٌ وتطرُّفٌ ... فإذا الخصَامُ مُفرِّقٌ وأثيمُ
ومَصَالحَاً دُوَلُ الجوار تديرُها ... والمَكرُ فيها صَاعِقٌ ووخيمُ
والحُزْنُ قدْ عَمَّ البلادَ جَميعَها ... حَتما تمادى بَلطَجٌ ولئيمُ
والبيتُ ضجَّ صُراخُهُ ونعيبُه ... ضَلَّ الطريقَ وسَادَهُ التعَتيمُ
إنَّ الخصَامَ إذا أصَابَ عقولنا ... رَعَتُ الخسَارَةُ والنتاجُ دَميمُ
إنْ كانَ هذا الودُّ ودَّ مَصَالحٍ ... فاعْلمْ بأنَّكَ واهِمٌ وذَميمُ
إنَّ انتماءَكَ للبلاد مُقدَّسٌ ... بُعْداً لجَهْلٍ يَعْتريه الضيمُ
فارْبأ بنفْسكَ أنْ تشقَّ صفوفنا ... فتفرُّقُ الأوْطانِ فيه جَحيمُ
واسْألْ حَكيماً إنْ أرَدْتَ مَشورَةً ... كمْ في البلادِ مُؤرِّخٌ وعَليمُ
مَلكَ الزمامَ مُجَادلٌ أو ثعْلبٌ ... والجَوُ فيه سَحَائبٌ وغيومُ
وَبكلِّ رُكن بالبلاد مُصيبَةٌ ... فيها الرياحُ عَوارضٌ وحُسوم
أوَصَارَت الأوطانُ سَاحَةَ عَابِثٍ ... نعِبَتْ خرابا اعتراها البومُ

وأقامَ بين حَياتنا مترصـدٌ كسَرَ القماقمَ مَاردٌ مَرْجومُ
شقَّ الصفوفَ مُعَانِدٌ مُتحايلٌ فأتيَ الدمَارُ مُجلجلا ويقيمُ
للنَصْرِ إنْ رُمْتَ الوفاقَ دَلائلٌ يَبْنى السلامَ مُهذَّبٌ وحَليمُ
ما دَمَّرَ الأوْطانَ إلا حَاقِدٌ لو كانَ فيها حاكمٌ وحَكيمُ
والحُبُّ دَوْماً للرخاء مُصَاحِبًا وإذا تناءى فالجَميعُ سَقيمُ
بَيْـعُ البـلادِ نذالةٌ وندامَةٌ يَعْلو الودادُ مُزْهِرٌ وعَميمُ
لا لانقسام للصفوف مُفرِّقٌ ليلُ الفـرَاقِ مُدَمِّرٌ وبَهيمُ
قدْ كانَ هذا العَصْرُ عَصْرَ ترابُطٍ لولا التقهقر فالفسادُ غشومُ
فالعَصْرُ يلفظ ما نراه مُقسِّما حَيْثُ الجَميعُ مُجادِلٌ وخصيمُ
بَزَغَ النَهَارُ فكانَ نصْراًباهرا ماذا دهانا ؟!! فالفسادُ أليمُ
هيا بنا حَوْلَ المَصَالِح وحْدَةً حُـبٌ وودٌ والجَميعُ رَؤومُ
عِنْدَ الشدائِدِ للبلادِ رجالها يعلو بمصْرَ مُهاجـرٌ ومُقيمُ
لَا للتعَصُّبِ إذ يُسَمِّمُ جَوَّنا هَذا التعَصُّبُ سافِرٌ وعَقيمُ

المَقالُ السابعُ والعشرون:

٣ - الأسْلوبُ الأدَبي

نرى أنَّ الجمالَ مِنْ أبرز صِفاتِ هذا الأسْلوبِ، حيث الخيال والتصوير، وتلمس وجوه الشبه بين الأشياء، وإلباس المعنوي ثوب المحسوس والعكس، كذلك المحسنات البديعية، ووضع الكلمات والمعاني في أجمل صورة، كل ذلك يعطينا أسلوبا رائعا رقيقا جميلا.

يقولُ الأستاذ على الجارم في كتاب البلاغة الواضِحَة، أنَّ المتنبي لا يرى الحُمَّى الراجعة كما يراها الأطباء لجراثيم تدْخلُ الجسْمَ، فترتفع حَرَارته، وتسبب رِعْدَةً وقشعريرة حتى إذا فرغت نوبتها تصَبَّبَ الجسْمُ عَرَقا، ولكنه يُصَورها كما نراها في الأبيات الآتية:

وزائرتي كأنَّ بها حَـياء ... فليس تـزور إلا في الظـلام
بذلت لها المطارفَ والحشايا ... فعافتها وباتت في عظامي
يضيقُ الجلدُ عن نفسي وعنها ... فتوسـعه بـأنواع السقام
كأن الصبحَ يطردها فتجري ... مـدامعها بأربعـة سـجامَ
أراقبُ وقتها من غير شوق ... مُراقبة المشوق المستهامَ
ويصدقُ وعْدُها والصدقُ شر ... إذا ألقاكَ في الكرب العظامَ
أبنتَ الدَهر عندي كلَّ بنت ... فكيفَ وصلت أنت من الزحامِ؟

كما يقول:

قدْ يتظاهَرُ الأديبُ بإنكار أسْبَاب حَقائق العلم، ويتلمَّسُ لهَا خيَاله أسْبابا تثبتُ دَعْواهُ وتقوى الغرَضَ الذي يَنشدَهُ، فكلفُ البَدْر الذي يَظهَرُ في وجْههِ ليْسَ ناشِئا عَمَّا فيهِ مِنْ جبَال وقيعان جَافة كما يقولُ العُلَمَاءُ فنرى المُعَرِّي يرجع

ذلك لسببٍ آخرَ، حَيْثُ يَقولُ في الرِّثاءِ:

ومَا كلفةُ البَدْر المُنير قديمة ولكنها في وجْههِ أثرُ اللطم

والكلفة: هي حُمْرَة كدِرَة تعْلو الوَجْه.

ولابد في هذا الأسلوب من الوضوح والقوة، فيقول المتنبي:

قِفِي تغرَم الأولى مِنَ اللحْظِ مُهْجَتِي بثانيةٍ والمُتلِفُ الشيء غارمُه

غرم ما أتلفه: لزمه أداؤه، وتغرم جواب قفي وفاعله الأولى، ومن اللحظ بيان للأولى، ومهجتي مفعول تغرم. لذلك يقول الأستاذ على الجارم: القولُ هنا غير بليغ، لأنه يريد أنه نظر إليها نظرة أتلفت مهجته، فيقول لها قفي لأنظرك نظرة أخرى ترد إلىّ مهجتي وتحييها، فإن فعلت كانت النظرة غرْما لما أتلفته النظرة الأولى، فقد جعلنا المتنبي نعاني طويلا في شرح هذا الكلام الموجز الذي سبب ما فيه من حذف وسوء تأليف شِدَّة خفائه وبُعده عن الأذهان، مع أن معناه جميل بديع، وفكرته مُؤيدة بالدليل.

لكن تظهر القوة في هذا الأسلوب في قول المتنبي:

مَا كنتُ آمُلُ قبل نعْشِكَ أنْ أرَى رَضوى عَلى أيْدي الرجَالِ يَسيرُ

رضوى: اسم جبل في المدينة.

وعند قراءتك لقول ابن المعتز:

قدْ ذهَبَ الناسُ ومَاتَ الكمَالُ وصَاحَ صَرْفُ الدَهْرِ أيْنَ الرِّجَالُ؟
هذا أبـو العـبَّاس في نعْشِه قومُوا انظروا كيْفَ تسيرُ الجبَالُ !

تجد أن الأسلوبَ الأول هادئ مطمئن، وأن الثاني شديد المرة عظيم القوة، وربما كانت نهاية قوته في قوله «وصاح صرف الدهر أين الرجال» ثم في قوله «قوموا

انظروا كيف تسير الجبال».

الأسْلوبُ الأدَبي يَجبُ أنْ يَكونَ جَميلا رائِعًا بَديعَ الخيَال، وواضِحًا قويًا، وكلمَا كثرَ المَجَازُ، وكثرَتْ التشبيهَاتُ، والأخيلة زادَ حُسْنه شريطة ألا يَظهَرَ به التكلفُ وألا يفسدَه التصَنعُ، وخذ على سبيل المثال قولَ الشاعر:

فأمْطرَتْ لؤلؤا مِنْ نرْجسٍ وسَقتْ ورْدا وعَضَّتْ على العُنابِ بالبَرَدِ

العُنَّاب: ثمر أحمر تشبه به الأنامل.
البرد: حب الغمام وتشبه به الأسنان.

ونحن نعلم أن الشعر والنثر الفني هما موطنا الأسلوب الأدبي، وفيهما يبلغ أقصى مدى الفن والجَمال.

المَقالُ الثامِنُ والعشرون:

عندَ تحدثنا عن علم البيان، فإن أول ما يخطر ببالنا هو التشبيه، فقد تقابلنا أبياتٌ شِعْريَّة مثل:

قول المعري في المديح:

أنْتَ كالشمْسِ في الضِّيَاءِ وإنْ جا وَزْتَ كيوانَ في عُلُوَ المَكانِ

كيوان: زحل، وهو أعلى الكواكب السيارة.

أو قول الشاعر:

أنْتَ كالليْثِ في الشجَاعَةِ والإقْـ دامِ والسَيْفِ في قراع الخطوب

قراع الخطوب: مصارعة الشدائد والتغلب عليها.

أو قول الشاعر:

كأنَما المَـــاءَ في صَـــفاءِ وقـــدْ جَـــرَى ذائِبَ اللجَـــيْنِ

اللجين: هو الفضة.

مِنْ هَذه الأمْثلة نجدُ أنَّ التشبيهَ بيانُ أنَّ شيئا أو أشياءَ شارَكتْ غيْرَها في صِفة أو أكثر، بأداةٍ هِيَ الكافُ أو نحْوها ملفوظة أو ملحوظة، كما نستطيعُ أنْ نسْتنتجَ أنَّ أرْكانَ التشبيهِ أرْبَعَة هِيَ المشبه والمشبه به، ويُسَميان طرفي التشبيه، وأداة التشبيه، ووجْه الشبه، ويجبُ أنْ يكونَ أقوى وأظهَرَ في المشبه به منه في المشبه.

لكن دعنا الآن – صديقي العزيز – نرى براعة التشبيه، وذلك حينما نسمع قول المعري يصف نجْماً ويقول:

وكأنَّ النجومَ بَيْنَ دُجَاها سُنَنُ لاحَ بَيْنهُنَّ ابتداع

تجدَ أنَّ جَمَالَ هذا التشبيه جَاءَ مِنْ شعورك ببراعَةِ الشاعِرِ وحَذقِهِ في عَقدِ المشابهة بين حَالتين ما كانَ يَخطر بالبَال تشابههما، وهما حالة النجوم في رقعَةِ الليل بحَال السُنن الدينية بالبال الصَحيحَةِ متفرقة بَيْنَ البدع الباطلة، ولهذا التشبيه رَوْعَة أخرى جَاءَتْ من أنَّ الشاعِرَ تخيّلَ أن السنن مضيئة لامعة، وأن البدع مظلمة قاتمة.

انظرْ إلى جَمَالِ ورقةِ التشبيهِ في قوْلِ المتنبي:

بُليتُ بلى الأطلالِ إنْ لَمْ أقف بها وقوفَ شحيحٍ ضاعَ في التُرْبِ خاتَمُه

تراه يَدْعُو على نفسِهِ بالبلى والفناءِ إذا هوَ لَمْ يَقِفْ بالأطلال ليذكرَ عَهْدَ من كانوا بها، أمَّا عن تصوير هَيْئَةِ الوقوفِ فيقول: كما يَقِفُ شحيحٌ فقدَ خاتمَه في التراب، وهو يبدو بحَال الذاهل المتحير المحزون المطرق الرأس ويتنقل من مكان لآخر في اضطراب ودهشة.

هذا وقد نرى العربَ يشبهونَ الجَوادَ الكريمَ بالبَحْر والمَطر، والشجَاعَ بالأسَدِ، والوَجْهَ الحَسَن بالشمْس والقمَر، والعَالي المَنزلةِ بالنجْم، والحَليمَ الرَزينَ بالجَبَلِ، والأمَاني الكاذبةِ بالأحْلام، والوَجْهَ الصَبوحَ بالدينار، والشعْرَ الفاحِمَ بالليل، والمَاءَ الصَافيَ باللجَيْن، والليْلَ بمَوْج البَحْر، والجَيْشَ بالبَحْر الزاخر، والخَيْلَ بالريح والبَرْقَ، والنجومَ بالدُرَر والأزهَار والأسْنانَ باللؤلؤ، والسُفنَ بالجبَال، والشيْبَ بالنهار، وغرَّة الفرَس بالهلال، والجَبَانَ بالنعَامَةِ، واللئيمَ بالثعْلبِ، والطائِشَ بالفرَاش، والذليلَ بالوتدِ والبليدَ بالحِمَار والبخيلَ بالأرضِ المُجْدِبَةِ.

والطريف أن رجالاً من العرب اشتهروا ببعض الخلال وصاروا مثلا يُضرَب، فيشبه الوفي بالسموأل، والكريم بحاتم، والعادل بعمر، والحليم بالأحنف، والفصيح بسحبان، والخطيب بقس ابن ساعدة، والشجاع بعمرو بن معد يكرب، والحكيم بلقمان، والذكي بإياس.

والعَجيبُ أنَّ البَعْضَ الآخرَ اشتهَرَ بصفاتٍ ذميمَةٍ فجرى التشبيهُ بهم أيضا، فيشبه العيي بباقل، والأحْمَق بهبقة، والنادِم بالكسعيِ، والبخيل بهادر، والهَجَّاء

بالحطيئة، والقاسي بالحجاج.

ولنبحث الآن التشبيه بآية من الذكر الحكيم،فقد قال سبحانه وتعالى بسورة يونس (٤٢): ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾

ضرب تبارك وتعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بما أنزل من السماء من الماء، مما يأكل الناس من زرع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من أب وقضب وغير ذلك، (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها) أي: زينتها الفانية، (وازينت) أي: حسنت بما خرج من رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان، (وظن أهلها) الذين زرعوها وغرسوها (أنهم قادرون عليها) أي: على جذاذها وحصادها فبينا هم كذلك إذ جاءتها صاعقة، أو ريح باردة، فأيبست أوراقها، وأتلفت ثمارها؛ ولهذا قال تعالى: (أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا) أي: يبسا بعد [تلك] الخضرة والنضارة، (كأن لم تغن بالأمس) أي: كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك.

وقال قتادة : (كأن لم تغن) كأن لم تنعم.

وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن ؛ ولهذا جاء في الحديث يؤتى بأنعم أهل الدنيا، فيغمس في النار غمسة ثم يقال له: هل رأيت خيرا قط ؟ [هل مر بك نعيم قط؟] فيقول: لا. ويؤتى بأشد الناس عذابا في الدنيا فيغمس في النعيم غمسة، ثم يقال له: هل رأيت بؤسا قط؟ فيقول: لا»

لكن دعونا نبحث المشبه والمشبه به في الآيات الكريمة فنجد:

المشبه: حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال

المشبه به: حال النبات في جفافه وذهابه حُطاما بعدما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته.

وجه الشبه: صورة شئ مبهج يبعث الأمل في النفوس في أول أمره ثم لا يلبث أن يظهر في حال تدعو إلى اليأس والقنوط.

يقول أهل البلاغة أن للتشبيه أغراض خمس، هي:

١ – بيان إمكان المشبه: وذلك حين يسند إليه أمر مستغرب لا تزول غرابته إلا بذكر شبيه له.
٢ – بيان حاله: وذلك حينما يكون المشبه غير معروف الصفة قبل التشبيه فيفيده التشبيه الوصف.
٣ – بيان مقدار حاله: وذلك إذا كان المشبه معروف الصفة قبل التشبيه معرفة إجمالية وكان التشبيه يبين مقدار هذه الصفة.
٤ – تقرير حاله: كما إذا كان ما أسند إلى المشبه يحتاج إلى التثبيت والإيضاح بالمثال.
٥ – تزيين المشبه أو تقبيحه.

والجدير بالذكر أن تقرير حال المشبه يتضح بجلاء في الآية القرآنية الآتية رقم ٤١ بصورة الرعد، حيثُ تقول:

﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ (٤١).

وهى تتحدث في شأن من يعبدون الأوثان وأنهم إذا دعوا آلهتهم لا يستجيبون لهم، ولا يرجع إليهم هذا الدعاء بفائدة، وقد أراد الله جل شأنه أن يقرر هذه الحال ويثبتها في الأذهان، فشبه هؤلاء الوثنيين بمن يبسط كفيه إلى الماء ليشرب فلا يصل الماء إلى فمه بالبداهة، لأنه يخرج من خلال أصابعه ما دامت كفاه مبسوطتين، فالغرض من هذا التشبيه تقرير حال المشبه، ويأتي هذا الغرض حينما يكون المشبه أمرا معنويا، لأن النفس لا تجزم بالمعنويات جزمها بالحسيات فهى في حاجة إلى الإقناع.

له دعوة الحق أي: لله دعوة الصدق.
قال علي رضي الله عنه: دعوة الحق التوحيد .
وقال ابن عباس : شهادة أن لا إله إلا الله.
وقيل: الدعاء بالإخلاص، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله عز وجل.

والذين يدعون من دونه أي: يعبدون الأصنام من دون الله تعالى، أي: لا يجيبونهم بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضر، إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، أي: إلا كباسط كفيه ليقبض على الماء، والقابض على الماء لا يكون في يده شيء، ولا يبلغ إلى فيه منه شيء ، كذلك الذي يدعو الأصنام، وهي لا تضر ولا تنفع، لا يكون بيده شيء.

وقيل: معناه كالرجل العطشان الذي يرى الماء من بعيد، فهو يشير بكفه إلى الماء، ويدعوه بلسانه، فلا يأتيه أبدا، هذا معنى قول مجاهد .

ومثله عن علي، وعطاء : كالعطشان الجالس على شفير البئر، يمد يده إلى البئر فلا يبلغ قعر البئر إلى الماء، ولا يرتفع إليه الماء، فلا ينفعه بسط الكف إلى الماء ودعاؤه له، ولا هو يبلغ فاه، كذلك الذين يدعون الأصنام لا ينفعهم دعاؤها، وهي لا تقدر على شيء.

وعن ابن عباس : كالعطشان إذا بسط كفيه في الماء لا ينفعه ذلك ما لم يغرف بهما الماء، ولا يبلغ الماء فاه ما دام باسطا كفيه. وهو مثل ضربه لخيبة الكفار.

وقال الضحاك، عن ابن عباس : وما دعاء الكافرين ربهم إلا في ضلال لأن أصواتهم محجوبة عن الله تعالى .

المقالُ التاسعُ والعشرون:

وبَعْدَ أنْ رأينا أمثلةً لبلاغةِ التشبيه، نستطيع الآنَ أنْ ننتقلَ إلى المَجَاز اللغوي حَيْثُ نرى اللفظ المُسْتعمل في غير ما وضعَ له لعلاقة مع قرينةٍ مانعَةٍ من إرادَةِ المَعْنى الحَقيقي، والعَلاقة بين المَعْنى الحَقيقي والمَعْنى المَجَازى قد تكون المشابهة، وقد تكون غيرها، والقرينة قد تكون لفظية وقد تكون حالية وهذا ظاهر في قول أبي الطيب المتنبي، عند إصَابته بالحُمَّى بمصر:

فإنْ أمْرَضْ فما مَرضَ اصْطباري وإنْ أُحْمَمْ فما حُمَّ اعْتزامي

لَمَّا كان الاصْطبار لا يمرض، وكذلك الاعتزام لا يُحَمّ، فقد ظهَرَ المَجَازُ في كلمتي مرض وحم، والعلاقة هى المشابهة، فقد شبَّه قلة الصَبْر بالمَرَض لأنهما دلالة الضعف، وقد شبه انحلال العزم بالإصابة بالحمى لما لهما من التأثير السَيىء، والقرينة في كل الحَالات هنا هِيَ لفظية (اصطباري، اعتزامي). وكذلك قوله وهو مع سيف الدولة عندما أمطر السحاب:

تعَرَّضَ لِي السَحَابُ وقد قفلنا فقلتُ إليكَ إنَّ مَعِيَ السَحَابا

السحاب لا يكون رفيقا (السحاب الأخيرة)، فكانت المشابهة، حيث شبه الممدوح بالسحاب لما لكليهما من الأثر النافع، والقرينة لفظية وهى معي.

لكن انظر الآن إلى الآية الأولى بسورة إبراهيم وهى قوله سبحانه وتعالى: **﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾**.

لنرى جمالَ المجاز اللغوي، في كلمتي الظلمات والنور، حيث لا يقصد بالأولى إلا الضلال، ولا يراد بالثانية إلا الهدى والإيمان، والعلاقة المشابهة والقرينة حالية، وقد قال أهل البلاغة أن الاستعارة من المجاز اللغوي، وهى تشبيه حذف أحد طرفيه، فعلاقتها المشابهة دائما، وهى قسمان، تصريحية أى صرح فيها بلفظ المشبه به، ومكنية، أى حذف فيها المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه.

حول تفسير الآية: بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أنزل على نبيه ﷺ هذا الكتاب العظيم ليخرج به الناس من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهدى، وأوضح هذا المعنى في آيات أخر، كقوله: ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ الآية [الحديد ٩]، وقوله: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ الآية [٢٥٧ البقرة] إلى غير ذلك من الآيات، كما تقدمت الإشارة إليه، وقد بين تعالى هنا أنه لا يخرج أحدا من الظلمات إلى النور إلا بإذنه جل وعلا في قوله: بإذن ربهم ، وأوضح ذلك في آيات أخر، كقوله: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله الآية [النساء ٦٤]، وقوله: وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ الآية [يونس ١٠٠]، إلى غير ذلك من الآيات

لكن انظر -بارك الله فيك- إلى قوله سبحانه وتعالى بسورة مريم «رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا»، فقد شبه الرأس بالوقود ثم حذف المشبه به، ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو «اشتعل» على سبيل الاستعارة المكنية، والقرينة إثبات الاشتعال للرأس.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (٤-٦ مريم)

جملة قال رب إني وهن العظم مني مبينة لجملة نادى ربه . وهي وما بعدها تمهيد للمقصود من الدعاء وهو قوله فهب لي من لدنك وليا . وإنما كان ذلك تمهيدا لما يتضمنه من اضطراره لسؤال الولد. والله يجيب المضطر إذا دعاه. فليس سؤاله الولد سؤال توسع لمجرد تمتع أو فخر.

ووصف من حاله ما تشتد معه الحاجة إلى الولد حالا ومآلا. فكان وهن العظم وعموم الشيب حالا مقتضيا للاستعانة بالولد مع ما يقتضيه من اقتراب إبان الموت عادة. فذلك مقصود لنفسه ووسيلة لغيره وهو الميراث بعد الموت. والخبران من قوله وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا مستعملان مجازا في لازم الإخبار. وهو الاسترحام لحاله. لأن المخبر بفتح الباء عالم بما تضمنه الخبران.

والوهن: الضعف. وإسناده إلى العظم دون غيره مما شمله الوهن في جسده لأنه أوجز في الدلالة على عموم الوهن جميع بدنه لأن العظم هو قوام البدن وهو أصلب شيء فيه فلا يبلغه الوهن إلا وقد بلغ ما فوقه.

والتعريف في العظم تعريف الجنس دال على عموم العظام منه. وشبه عموم الشيب شعر رأسه أو غلبته عليه باشتعال النار في الفحم بجامع انتشار شيء لامع في جسم أسود. تشبيها مركبا تمثيليا قابلا لاعتبار التفريق في التشبيه. وهو أبدع أنواع المركب. فشبه الشعر الأسود بفحم والشعر الأبيض بنار على طريق التمثيلية المكنية ورمز إلى الأمرين بفعل اشتعل. وأسند الاشتعال إلى الرأس. وهو مكان الشعر الذي عمه الشيب. لأن الرأس لا يعمه الشيب إلا بعد أن يعم اللحية غالبا. فعموم الشيب في الرأس أمارة التوغل في كبر السن.

وإسناد الاشتعال إلى الرأس مجاز عقلي، لأن الاشتعال من صفات النار المشبه بها الشيب فكان الظاهر إسناده إلى الشيب. فلما جيء باسم الشيب تمييزا لنسبة الاشتعال حصل بذلك خصوصية المجاز وغرابته، وخصوصية التفضيل بعد الاحتمال. مع إفادة تنكير شيبا من التعظيم فحصل إيجاز بديع. وأصل النظم المعتاد: واشتعل الشيب في شعر الرأس

مثال: قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا سَكَتَ عَن مّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لّلّذِينَ هُمْ لِرَبّهِمْ يَرْهَبُونَ**﴾. [سورة: الأعراف – الآية: ١٥٤]

شُبه الغضب بالإنسان الذي من شأنه أن يحصل منه السكوت أو عدمه،وحُذف المشبه به وهو الإنسان ودُل عليه بلازم من لوازمه وهو السكوت فكانت استعارة مكنية.

المقالُ الثلاثون:

سَألني صَديقي عن المَجاز العَقلي، فقلتُ له بيتا قاله المُتنبي عِندَمَا وَصَفَ مَلكَ الروم بَعْدَ أنْ هَزَمَهُ سَيْفُ الدَوْلة:

ويمشي به العُكازُ في الدير تائبا وقد كانَ يَأبى مَشيَ أشقرَ أجْرَدا

وقلتُ له انظرْ إلى الفعْل يمشي تجدَ أنه أسْندَ لغير فاعله، فإنَّ العُكازَ لا يمشي، وإنما يَسيرُ صَاحِبُ العُكَاز، ولكنَّ لَمَّا كانَ العكازُ سَبَبا فِي المَشي أسْندَ الفِعْلُ إليه، وقلت له كل مجاز عقلي يصح أن يكون استعارة مكنية وليس العكس.

ثم ذكَّرْته ببَيْتِ الحُطيئة في الهجاء:

دَعْ المَكارمَ لا ترْحَلْ لبَغيتها واقعد فإنك أنتَ الطاعِمُ الكاسي

فيقول لمن يهجوه «واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي» فهل تظن أنه بعد أن يقول له: لا ترحل لطلب المكارم يقول له: إنك تطعم غيرك وتكسوه ؟ لا إنما أراد أقعد كلا (والكل من يعوله غيره) على غيرك مطعوما مكسوا فأسند الوصف المسند الفاعل إلى ضمير المفعول.

وترى ذلك أيضا بقوله سبحانه وتعالي: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ الإسراء:٥٤ « تجد أن كلمة مستورا جاءت بدلا من كلَمة ساترا، فاستعمل اسم المفعول مكان اسم الفاعل، أو نقول أسند الوصف المبنى للمفعول إلى الفاعل.

نستنتج من ذلك أن المجاز العقلي هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي، والإسناد المجازي يكون إلى سبب الفعل أو زمانه أو مكانه أو مصدره، أو بإسناد المبني للفاعل إلى المفعول أو المبني للمفعول إلى الفاعل.

كذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿لا عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أمْرِ اللهِ إلا مَنْ رَحِمَ﴾

المعنى: لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله، فاسم الفاعل أسند إلى المفعول، وهذا مجاز عقلي علاقته المفعولية.

وقد يختار البليغُ لكتابتِه طريقا من ثلاثٍ، فهو تارة يوجز، وتارة يسهب، وتارة يأتي بالعبارة بين بين على حسب ما تقتضيه حَالُ المخاطب ويدعو إليه مواطن الخطاب، انظر إلى الأمثلة الآتية:

١ – قال تعالى: ﴿**وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله**﴾

٢ – وقال تعالى: ﴿**ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله**﴾.

٣ – وقال النابغة الذبياني:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

٤ – وقال طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

تجد أن الأمثلة الأربع جاءت ألفاظها بقدر المعاني، ونسمى ذلك المساواة، أي أن تكون المَعَاني بقدر الألفاظ والألفاظ بقدر المعاني، لا يزيد بعضها عن بعض.

وهذا بخلاف الإيجاز الذي هو جمع المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل مع الإبانة والإفصاح، وهو نوعان:

إيجاز قصر، ويكون بتضمين العبارات القصيرة معاني كثيرة من غير حذف.

إيجاز حذف، ويكون بحذف كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تعَيِّن المحذوف.

والآنَ نوضِحُ بَعْضَ أنواع الإيجاز، كما في الأمثلة الآتية:

١ – قال تعالى: ﴿**أولئك لهم الأمن**﴾: إيجاز قصر، لأن كلمة الأمن يدخل تحتها كل أمر محبوب، فقد انتفى بها أن يخافوا فقرا، أو موتا، أو جورا، أو زوال نعمة، أو غير ذلك من أصْناف المكاره.

٢ – قوله سبحانه وتعالى: ﴿**تالله تفتأ تذكر يوسفَ**﴾: إيجاز حذف، لأن المعنى تالله لا تفتأ تذكر يوسف فحذف حرف النفي.

٣ – قوله سبحانه وتعالى: ﴿**أَخْرَجَ منها مآءَها ومَرْعَاها**﴾: إيجاز قصر، فقد دل الله سبحانه بكلمتين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ومتاعا للناس من العشب والشجر والحَطب واللباس والنار والماء.

٤ – وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**فأمَّا الذينَ اسْوَدَّتْ وجُوهُهُم أكفرتمْ بَعْدَ إيمانِكم**﴾ هنا إيجاز حذف، فقد حذف جواب أما، وأصْلُ الكلام « فيقال لهم أكفرتم بعد إيمانكم ».

٥ – وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**ولو أنَّ قرءَانا سُيرَتْ بِهِ الجبَالُ أو قطعَتْ به الأرضُ أو كُلِّمَ بِهِ المَوْتى بل للهِ الأمْرُ جَميعا**﴾. يوجد إيجاز بحذف جواب لو، إذ تقدير الكلام لكان هذا القرآن.

أما الأسلوب الذي يضاد الإيجاز ويقابله فيسمى الإطناب، وهو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، ونوضحه في الأمثلة الآتية:

١ – قال تعالى: ﴿**تنزلُ الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر**﴾.

تجد لفظ «الروح» فيه زائدا، لأن معناه داخل في عموم اللفظ المذكور قبله وهو الملائكة، وهنا ذكر الخاص بعد العام، فقد خص الله سبحانه وتعالى الروح بالذكر وهو جبريل مع أنه داخل في عموم الملائكة تكريما له وتعظيما لشأنه كأنه جنس آخر، ففائدة الزيادة هنا التنويه بشأن الخاص.

٢ – وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**رَبِّ اغفر لي ولِمَنْ دَخلَ بَيْتِي مُؤمِنا وللمؤمِنينَ والمؤمِنات**﴾.

وهنا تلاحظ أنه ذكر العام بعد الخاص، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى المؤمنين والمؤمنات وهما لفظان يدخل في عمومهما من ذُكر قبل ذلك، والغرض من هذه الزيادة إفادة الشمول مع العنايةِ بالخاص لذكره مَرَّتين، مَرَّة وحْدَهُ، ومَرَّة مُندَرجَا تحْتَ العَامِ.

انظر إلى قوله سبحانه وتعالى بسورة الأعراف (٩٧-٩٩) حيث نجد الإطناب هنا بالتكرار، في معرض الإنذار، لتقرير المعنى في نفوس السامعين: ﴿**أَفَأَمِنَ أَهْلُ**

الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨)﴾

قوله تعالى أفأمن أهل القرى الاستفهام للإنكار، والفاء للعطف. نظيره: أفحكم الجاهلية والمراد بالقرى مكة وما حولها؛ لأنهم كذبوا محمدا ﷺ وقيل: هو عام في جميع القرى.

أن يأتيهم بأسنا أي عذابنا، بياتا أي ليلاً وهم نائمون

«أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى» قرأه الحرميان وابن عامر بإسكان الواو للعطف، على معنى الإباحة ؛ مثل ولا تطع منهم آثما أو كفورا. والمعنى: أو أمنوا هذه الضروب من العقوبات. أي إن أمنتم ضربا منها لم تأمنوا الآخر. ويجوز أن يكون «أو» لأحد الشيئين، كقولك: ضربت زيدا أو عمرا. وقرأها البعض بالفتح بهمزة بعدها. جعلها واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام ؛ نظيره أوكلما عاهدوا عهدا .

وهم يلعبون أي وهم فيما لا يجدي عليهم ؛ يقال لكل من كان فيما يضره ولا يجدي عليه لاعب، ذكره النحاس . وفي الصحاح: اللعب معروف، واللعب مثله. وقد لعب يلعب. وتلعب: لعب مرة بعد أخرى. ورجل تلعابة: كثير اللعب، والتلعاب بالفتح المصدر. وجارية لعوب.

أما الإطناب بالتذييل فنجده في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد، أفإن مت فهم الخالدون، كل نفس ذائقة الموت**﴾، حيث نجد الإطناب بالتذييل في موضعين،أولهما ﴿**أفإن مت فهم الخالدون**﴾ وهذا تذييل لم يجر مجرى المثل، والثاني ﴿**كل نفس ذائقة الموت**﴾ وهو جار مجرى المثل.

المقال الواحِدُ والثلاثون:

قال أحدهم لبشار بن برد: أسمع كلامك في موضعين فأتعجب، الموضع الأول يجعلني ألمس السماء وهو قولك:

إذا ما غضبْنا غَضْبَة مضرية هتكنا حُجَابَ الشمْسِ أو قطرَتْ دَمَا
إذا ما أعَرْنَا سَيدًا من قبيلةٍ ذُرا مِنْبَرٍ صَلى عليْنا وسَلَّما

أما الموضع الثاني فهو طرب وهزل، وأنت تقول:

ربابة ربَّـة البَـيْتِ تصُبُّ الخلَ في الزيتِ
لها عشرُ دَجَاجَاتٍ وديكٌ حَسُنَ الصَوْتِ

فقال بشار: لكل وجه وموضع، فالقول الأول جد، والثاني قلته في ربابة جاريتي، وأنا لا آكل البيض من السوق، وربابة لها عشر دجاجات وديك فهيَ تجمع لي البيض، فهذا القول عندها أحسن من «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» عندك !

من ذلك نستنتج أنه يجب أن يطابق الكلام لحال السامعين، والمواطن التي يقال فيها، والكلام لا يكون بليغا حتى يلائم المقام الذي قيل فيه، ويناسب حال السامع، وقديما قيل: لكل مقام مقال.

انظر إلى قوله سبحانه وتعالى في شأن رسُل عيسى عليه السلام، حين بعثهم إلى أهل أنطاكية:

تفسير قوله تعالى: ﴿**واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون**﴾، فأنت تجد الآيات بسورة يس تقول: ﴿**واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون (١٣) إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون (١٤) قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون (١٥) قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون (١٦) وما علينا إلا البلاغ المبين (١٧)**﴾

يقول تعالى: واضرب – يا محمد – لقومك الذين كذبوك، مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون .

قال ابن إسحاق – فيما بلغه عن ابن عباس ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه –: إنها مدينة أنطاكية.

وقوله: «إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما» أي: بادروهما بالتكذيب «فعززنا بثالث» أي: قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث.

قال ابن جريج : كان اسم الرسولين الأولين شمعون ويوحنا ، واسم الثالث بولص، والقرية أنطاكية .

فقالوا أي: لأهل تلك القرية «إنا إليكم مرسلون» أي: من ربكم الذي خلقكم، نأمركم بعبادته وحده لا شريك له. قاله أبو العالية .

وزعم قتادة بن دعامة : أنهم كانوا رسل المسيح، عليه السلام، إلى أهل أنطاكية . (قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا) أي: فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر ونحن بشر، فلم لا أوحي إلينا مثلكم ؟ ولو كنتم رسلا لكنتم ملائكة. وهذه شبه كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: بسورة التغابن، آيه ٦ «ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله عني حميد». قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين) [إبراهيم: ١٠]. وقوله حكاية عنهم في قوله: «ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون» [المؤمنون: ٣٤]، «وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا»؟ [الإسراء٩٤]. ولهذا قال هؤلاء: «ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون» أي: أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين: الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار، كقوله تعالى [العنكبوت ٥٢]: «وما علينا إلا البلاغ المبين» يقولون إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، فإذا أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة، وإن لم تجيبوا فستعلمون غب ذلك، والله أعلم.

أثر علم المعاني في بلاغة الكلام:

فإن الرسل حين أحسوا إنكارهم في المرة الأولى اكتفوا بتأكيد الخبر بـ «إنا» فقالوا: «إنا إليكم مرسلون»، فلما تزايد إنكارهم وجحدوهم قالوا: «ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون»، فأكدوا بالقسم وإن واللام.

وقد تخفي هذه الدقائق على غير أهل اللغة، رؤى أن الكندي ركب إلى أبي العباس المبرد وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشوا ! فقال أبو العباس: أين وجدت

ذلك ؟ فقال: وجدتهم يقولون: « عبد الله قائم « ثم يقولون: « إن عبد الله قائم» ثم يقولون: إن عبد الله لقائم، فالألفاظ مكررة والمعنى واحد، فقال: بل المعاني مختلفة، فالأول إخبار عن قيامه، والثاني جواب عن سؤال، والثالث رد على منكر.

كذلك يوجب علم المعاني أن يخاطب كل إنسان على قدر استعداده في الفهم ونصيبه من اللغة والأدب.

وإذا تأملت القرآن الكريم رأيته إذا خاطب العرب والأعراب أوجز كل الإيجاز، وأخرج الكلام مخرج الإشارة، والوحي، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم أسهب وأطنب، فمما خاطب به أهل مكة قوله تعالى:

«يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب (٧٣) ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز (٧٤) الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير(٧٥)».

«يا أيها الناس ضرب مثل» معنى ضرب: جعل، كقولهم: ضرب السلطان البعث على الناس، وضرب الجزية على أهل الذمة ، أي: جعل ذلك عليهم. ومعنى الآية: جعل لي شبه، وشبه بي الأوثان، أي: جعل المشركون الأصنام شركائي فعبدوها ومعنى (فاستمعوا له) أي: فاستمعوا حالها وصفتها. ثم بين ذلك فقال:

«إن الذين تدعون من دون الله» يعني: الأصنام، قرأ يعقوب بالياء والباقون بالتاء «لن يخلقوا ذبابا» واحدا في صغره وقلته لأنها لا تقدر عليه. والذباب: واحد وجمعه القليل: أذبة، والكثير: ذبان، مثل غراب وأغربة، وغربان، «ولو اجتمعوا له» أي: لخلقه، «وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه» قال ابن عباس : كانوا يطلون الأصنام بالزعفران، فإذا جف جاء الذباب فاستلب منه.

وقال السدي : كانوا يضعون الطعام بين يدي الأصنام فتقع الذباب عليه فيأكلن منه.

قال ابن زيد : كانوا يحلون الأصنام باليواقيت واللآلئ وأنواع الجواهر، ويطيبونها بألوان الطيب فربما تسقط منها واحدة فيأخذها طائر أو ذباب فلا تقدر الآلهة على استردادها، فذلك قوله: (وإن يسلبهم الذباب شيئا) أي: وإن يسلب

الذباب الأصنام شيئا مما عليها لا يقدرون أن يستنقذوه منه، (ضعف الطالب والمطلوب) قال ابن عباس : «الطالب»: الذباب يطلب ما يسلب من الطيب من الصنم، و«المطلوب»: الصنم يطلب الذباب منه السلب. وقيل: على العكس: الطالب»: الصنم و«المطلوب»: الذباب. وقال الضحاك : «الطالب»: العابد و«المطلوب»: المعبود. (ما قدروا الله حق قدره) ما عظموه حق عظمته وما عرفوه حق معرفته، ولا وصفوه حق صفته إن أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه، إن الله لقوي عزيز (الله يصطفي) يعني يختار (من الملائكة رسلا) وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وغيرهم، (ومن الناس) أي: يختار من الناس رسلا مثل إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ [ص: ١٠٤] وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، نزلت حين قال المشركون: «أأنزل عليه الذكر من بيننا» فأخبر أن الاختيار إليه، يختار من يشاء من خلقه.

(إن الله سميع بصير) أي: سميع لقولهم، بصير بمن يختاره لرسالته.

جاء بكتاب البلاغة الواضحة تأليف على الجارم ومصطفى أمين عن أثر علم المعاني في بلاغة الكلام: يقولون إن الخبر قد يفيد التحسر، والأمر قد يفيد التعجيز، والنهي قد يفيد الدعاء، والاستفهام قد يفيد ﴿ النفي، كما يقولون إن الخبر قد يلقى مؤكدا لخالي الذهن، وقد يلقي غير مؤكد للمنكر الجاحد، لغرض بلاغي بديع، أراده المتكلم من الخروج عما يقتضيه ظاهر الكلام.

كما أن القصر قد ينحو فيه الأديب مناحي شتى، كأن يتجه إلى القصر الإضافي رغبة في المبالغة، فيقول المتفائل:

وما الدنيا سوى حلم لذيذ تنبهه تباشيرُ الصَباح

ويقول المتشائم:

هل الدهرُ إلا ليلة طال سهدها تنفسَ عن يوم أحم عصيب

وقد يكون من مرامي القصر التعريض كقوله تعالى: «إنما يتذكرُ أولو الألباب» إذ ليس الغرض من الآية الكريمة أن يعلم السامعون ظاهر معناها، ولكنها تعريض بالمشركين، وأنهم لفرط عنادهم وغلبة الهوى عليهم في حكم من لا عقل له.

المقالُ الثاني والثلاثونَ:

لَمَّا كانَ عِلمُ البَيَانِ وسيلة إلى تأديةِ المَعْنى بأسَاليبَ عِدَّة بين تشبيهٍ ومَجَاز، وكناية، وأن دراسة علم المعاني تعين على تأديةِ الكلام مطابقا لمقتضى الحَال، مع وفائه بغرض بلاغي يفهم ضمنا من سياقه، وما يحيط به من قرائن، فإنه وُجِدَ عِلمُ البَديع الذي يشمَلُ مُحَسِّنات لفظية ومعنوية مثل الجناس، الاقتباس، السجع، المَحسنات المعنوية كالتورية والطباق وحسن التعليل، وسنتحدث عنه في مقالة اليوم إن شاء الله.

يقولُ سُبحَانه وتعالى في سورةِ الروم، آية ٥٥: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾.

انظر إلى لفظ الساعة وهى مكررة مرتين، ومعناها في الأولى يوم القيامة، ومعناها في الثانية إحدى الساعات، لهما نفسِ الشكل واللفظ مع اختلاف المعنى، وإيراد الكلام على هذا الشكل يسمى جناساً.

الجناس: نوعان تام وغير تام، التام وهو ما اتفق فيه اللفظان في أمور أربعة هى: نوع الحروف، وشكلها، وعددها، وترتيبها. أما غير التام فهو ما اختلف فيه اللفظان في واحد من الأمور المتقدمة.

قال تعالى «وهم ينهون عنه وينئون عنه» الجناس هنا غير تام بين كلمتى ينهون وينأون، وذلك لاختلاف الكلمتين في نوع الحروف.

الاقتباس: قد يستخدمه البليغ وهو تضمين النثر أو الشعر شيئا من القرآن أو الحديث الشريف من غير دلالة على أنه منهما، ويجوز أن يُغير في الأثر المقتبس قليلا. كقول عبد المؤمن الأصفهاني:

«لا تغرنك من الظلمة كثرة الجيوش والأنصار، إنما نؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار» فقد اقتبس هنا من القرآن الكريم، بغرض أن يستعير من قوته قوة وأن يكشف عن مهارته في إحكامه الصلة بين كلامه والكلام الذي أخذه.

السجع: وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير، وأفضله ما تساوت فقره كما في الأمثلة الآتية: ١ – قال صلى الله عليه وسلم: «اللهم أعط منفقا خلفا، وأعط ممسكا تلفا».

٢ – وقال أعرابي: اللهم إن كنت قد أبليت، فإنك طالما قد عافيت «

التورية: وهى من المحسنات المعنوية، وهى أن يذكر المتكلم لفظا مفردا له معنيان، قريب ظاهر غير مراد، وبعيد خفي هو المراد، كما في قول سراج الدين الوراق:

أصُـونُ أديمَ وجْهي عَنْ أناس لقَـاءَ المَـوْتِ عِنْدَهُمُ الأديبُ
وربُّ الشِّعْرِ عِنْدَهُمُ بَغيضٌ ولو وافَى بـهِ لهُمُ حَبيبُ

فكلمة حبيب لها معنيان: أحدهما المحبوب وهو المعنى القريب الذي يتبادر إلى الذهن بسبب التمهيد له بكلمة « بغيض « والثاني اسم أبى تمام وهو حبيب بن أوس، وهذا المعنى بعيد، وقد أراده الشاعر ولكنه تلطف فورَّى عنه وستره بالمعنى القريب.

الطباق: وهو الجمع بين الشيء وضده في الكلام، وهو نوعان: طباق الإيجاب وهو ما لم يختلف فيه الضدان إيجابا وسلبا، وطباق السلب وهو ما اختلف فيه الضدان إيجابا وسلبا.

انظر إلى المثالين الآتيين: ١ – قوله سبحانه وتعالى «وتحسبهم أيقاظا وهم رقود»، ٢ – قوله ﷺ «خير المال عين ساهرة لعين نائمة». إذا تأملت المثالين تجد هما مشتملان على « أيقاظا – رقود»، « ساهرة – نائمة» فتجد فيهما طباق الإيجاب. لكن طباق السلب فنجده في هذين المثالين:

١ – قوله سبحانه وتعالى: «يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله».

٢ – قول السموءل:

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

فهذان المثالان فكل منهما مشتمل على فعلين من مادة واحدة أحدهما إيجابي والآخر سلبي، وباختلافهما في الإيجاب والسلب صارا ضدين ويسمى الجمع بين الشيء وضده هنا طباق السلب.

المقابلة: وهي أن يُؤتى بمعنيين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب، كما هو موضح في قوله صلى الله عليه وسلم للأنصار: «إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع» فقد بين في صدر الكلام صفتين من صفات الأنصار وهما الكثرة والفزع، ثم قابل في آخر الكلام بالقلة والطمع على الترتيب، وأداء الكلام على هذا النحو يسمى مقابلة.

انظر إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿فأمَّا من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾ تجد أن المقابلة هنا بين المعاني الأربعة الأولى، وهي (أعطى، واتقى، وصدق، واليسرى) والمعاني الأربعة الأخيرة وهى (بخل، واستغنى، وكذب، والعسرى).

المقالُ الثالثُ والثلاثونَ:

لقد خصصنا هذا المقالُ للأمثال في القرآن الكريم، نظرا لما لها من منزلة وفائدة وتقريب للفهم وتوضيح للمعاني، والأمثال موجودة بلغة الضاد منذ بداياتها، وقد

ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز، ودلَّ على هذا الكتاب نفسه، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [١]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٣].

(حديث مرفوع) حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، قَالَ: أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَيَّاش ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ آمِرًا، وَزَاجِرًا، وَسُنَّةً خَالِيَةً، وَمَثَلا مَضْرُوبًا، فِيهَا نَبَؤُكُمْ، وَنَبَأُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ خَاصَمَ بِهِ فَلَجَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، لا يُخْلِقُهُ طُولُ الرَّدِّ، وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ» .

المثل في اللغة:

يستعمل المثل في أصل اللغة بمعنى الشبيه والمِثْل، ثم قالوا للقول السائر الممثل مضربه بمورده مثلا.

والمثل بهذا المعنى هو الذي ألَّف فيه علماء اللغة كتب الأمثال؛ كأبي عبيدة، وابن حبيب، وابن قتيبة، وابن الأنباري، وأبي هلال، والميداني.

ولما كان العرب لا يضربون الأمثال إلا بقول فيه حسن وغرابة، ونقلوا لفظ المثل إلى معنى ثالث، هو الشأن الغريب والقصة العجيبة، وبهذا المعنى فسر لفظ المثل في كثير من الآيات؛ كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾.

ونبه الزمخشري لهذه المعاني الثلاثة، ودل على أنها وردت في اللغة على هذا الترتيب؛ فقال في «كشافه»: «والمَثل في أصل كلامهم بمعنى المِثل والنظير، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده مثل، ولم يضربوا مثلاً ولا رأوه أهلاً للتسيير، ولا جديرًا بالتداول والقبول إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه»، ثم قال: «وقدِ استُعِير المثل للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة».

وكذلك يقول السعد التفتازاني في «الشرح المطوَّل»: «ولكون المثل مما فيه غرابة استعير لفظه للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن غريب ونوع غرابة؛ كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾؛ أي فيما قصصنا عليكم من العجائب قصة الجنة العجيبة».

المثل في القرآن:

فإذا رجعنا بعد هذا إلى تعرُّف أمثال القرآن، المشار إليها بمثل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ١٢] لنعلم ما المراد من المثل الذي يضربه الله للناس، فهل يراد منه الشبيه والنظير، أو يراد منه القول السائر الذي يشبه مضربه بمورده، أو يراد منه الحال أو القصة الغريبة، أو يراد المجاز المركب المستعمل على وجه الاستعارة؟

يقول الشيخ محمد الخضر حسين في بحثه «أمثال القرآن الكريم»:

ننظر أوَّلاً في كلام من تصدوا في علوم القرآن إلى أمثاله، فكتبوا فيها مصنفًا مستقلاًّ؛ كما فعل أبو الحسن الماوردي، أو عقدوا لها بابًا خاصًّا؛ كما فعل الشيخ السيوطي في كتاب «الإتقان»، وفعل الشيخ ابن القيم في كتاب «إعلام الموقعين».

ثم ننظر ثانيًا في بعض معاني الآيات التي استعمل فيها القرآن كلمة المثل؛ لعلنا نعرف بها ماذا يراد من المثل في استعمال القرآن.

النظر الأول في كلام مَنْ بَحثوا في أمثال القرآن:

لم يقع بأيدينا تأليف الماوردي في أمثال القرآن؛ ولكنَّ السيوطي نقل عنه أنه قال: «من أعظم علوم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه؛ لاشتغالهم بالأمثال، وإغفالهم الممثلات، والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام، والناقة بلا زمام».

وهذه العبارة تدلُّ على أنَّه يريد من أمثال القرآن الآيات المشتملة على تَمثيل حالٍ أمرٍ بحال أمر آخر، سواء أورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة أم بطريق التشبيه الصريح، وهذا المعنى هو الذي نفهمه من قول السيوطي: «الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد».

ولكن الشيخ السيوطي قسَّم الأمثال إلى أمثال صريحة وأمثال كامنة، وأتى للأمثال الصريحة بأمثلة من الآيات المشتملة على تشبيه حال شيء بحال شيء آخر؛ كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾[٥]، ثم أخذ في الحديث عن الأمثال الكامنة، ناقلاً لها عن الماوردي؛ فقال: «وأما الكامنة، فقال الماوردي: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم يقول: سمعت أبي يقول: سألت الحسن بن الفضل، فقلت: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد في كتاب الله «خير الأمور أوساطها»؟ قال: نعم، وأورد آيات تتضمن معنى المثل، منها قوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}. قال: قلت: فهل تجد في كتاب الله «من جهل شيئًا عاداه»؟ قال: نعم، في موضعين: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ}، {وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ}، وجرى على هذا النحو حتى قال له: فهل تجد فيه «لا تلد الحية إلا حية»؟ قال: قال تعالى: {وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا}، وأجد فيها مر علي من هذا النوع أنه ذكر الظلم في مجلس ابن عباس، فقال كعب: إني لا أجد في كتاب منزل أن الظلم يخرب الديار، فقال ابن عباس: أنا أوجدكه في

القرآن؛ قال تعالى: {فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا}، وقال شخص لآخر: أين تجد في القرآن: «الجار قبل الدار»؟ قال أجده في قوله تعالى: {رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ}.

وبمقتضى هذا يصح لنا أن نقول من أمثال القرآن الكامنة «خير الأمور أوساطها»، ومن أمثاله الكامنة «من جهل شيئًا عاداه»، ومن أمثاله الكامنة «لا تلد الحية إلا حية»، إذًا يعد من أمثال القرآن في نظر السيوطي والماوردي أقوالٌ لا تشتمل على استعارة أو تشبيه، إذ لا يقول أحد أن في قولهم: خير الأمور أوساطها، أو قولهم: من جهل شيئًا عاداه، أو قولهم: الجار قبل الدار – استعارة أو تشبيهًا.

فأمثال القرآن لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوي الذي هو الشبيه والنظير، ولا يستقيم حملها على معنى الأمثال عند من ألفوا في الأمثال؛ إذ ليست أمثال القرآن أقوالاً استعملت على وجه تشبيه مضربها بموردها، ولا يستقيم حملها على معنى الأمثال عند علماء البيان؛ إذ المثل عندهم ما استعمل على وجه الاستعارة وذاع استعماله، ومن أمثال القرآن ما ليس باستعارة، ثم هي أمثال من وقت نزولها، فلم يتحقق فيها إذ ذاك ذيوع الاستعمال.

وننظر إلى ما سلكه ابن القيم في تقدير أمثال القرآن، فنجده يقول فيها – أي أمثال القرآن –: تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدِهما بالآخر، وساق لبيان هذا نحو عشرين مثلاً من القرآن الكريم، وعندما نتأمل في هذه الأمثال، نَجِدُ أَكْثَرَها واردًا على طريقة التشبيه الصريح؛ كقوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا} [البقرة: ١٧]، وقوله تعالى: {إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ}، ومنه ما يجيء على طريقة التشبيه الذي يسميه بعض علماء البلاغة التشبيه الضمني، أو التشبيه المكنى عنه، كقوله تعالى: {وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا

فَكَرِهْتُمُوهُ}؛ إذ ليس فيه تشبيه صريح، وإنما هو تشبيه ضمني نحو:

فَإِنْ تَفُقِ الأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ

ونجد من بينها ما لم يشتمل على تشبيه ولا استعارة؛ كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}.

فقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا} قد سماه الله مثلاً، وليس فيه استعارة ولا تشبيه.

النظر الثاني في استعمال القرآن لكلمة «مثل»:

يستعمل القرآن كلمة «مثل» في تشبيه حال قوم بحال آخرين؛ كقوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا} [البقرة: ١٧]، أو تشبيه حال شيء بحال شيء آخر؛ كقوله تعالى: {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ} إلى آخر الآية.

وقد يستعمل القرآن كلمة «مثل» في وصفٍ أو قصة تقع في نفس المخاطَب موقع الغرابة، دون أن يكون فيه تشبيه أو استعارة؛ كقوله تعالى: {ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} الآية على ما بيَّنا آنفًا.

فضرب المثل في القرآن قد يستعمل في تمثيل حالةٍ غريبةٍ بأُخْرى مثلِها، وقد يستعمل في ذكر حالة غريبة تقصد لنفسها، ولا يراد تَمثيلها بنظيرة لها، ومن هنا ترى المفسرين قد يختلفون في تفسير آيات سماها الله مثلاً، فمنهم مَن يفسِّرها على قَصْدِ جعْلِها مثلاً لشيْءٍ آخَر، ومِنْهُم مَنْ يُفَسِّرُها على أنَّها قصة غريبة في نفسها، فيُمْكِنُنا أن نقول: أمثال القرآن ما يضربُه الله للناس من أقوال تتضمَّن ما فيه غرابةٌ من تشبيهٍ أو استعارة أو قِصَّة، ويدخل في هذا كل ما سَمَّاه القرآن قبل ذلك أو بعده مثلاً؛ بل ويعدُّ

في أمثال القرآن كل ما اشتمل على تمثيل حال شيء بحال آخر؛ كقوله تعالى: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}، وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}.

الآيات الجارية مجرى الأمثال:

فإن سأل سائل عن الآيات التي تجري على ألسنة الناس كما تجري الأمثال؛ كقوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون: ٦] إذ يستعملونها في المتاركة، قلنا هذا الضرب من الآيات يسميه علماء البيان: ما خرج مخرج المثل أو جرى مجرى الأمثال، فقد قالوا في بحث التذييل من باب الإطناب: إن التذييل ضربان: ضرب لم يخرج مخرج المثل، وهو ما لم يستقل بإفادة المراد، وضرب خرج مخرج المثل بأن تكون الجملة الثانية حكمًا كليًّا منفصلاً عما قبله، جاريًا مجرى الأمثال في الاستقلال وفشو الاستعمال؛ نحو قوله تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}.

وقد أخبرنا السيوطي بأن جعفر بن شمس الخلافة عَقَدَ في كتاب «الآداب» بابًا في ألفاظ من القرآن تجري مجرى المثل؛ كقوله تعالى: {لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ} [النجم: ٥٨] وقوله تعالى {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [المؤمنون: ٥٣] وقوله تعالى: {لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ} [المائدة: ١٠٠] وقوله تعالى: {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} [التوبة: ٩١] وقوله تعالى: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [فاطر: ٤٣].

وقد أدخل علماء البديع أمثال هذه الآيات في النوع الذي يسمونه إرسال المثل،

وهو أن يأتي المتكلم بما يجري مجرى المثل من حكمة أو غيرها فيما يحسن التمثل به، ولا ندع هذا الضرب من الآيات حتى ننبه على حكم استعمال الآيات استعمال الأمثال، فقد رآه بعض أهل العلم خروجًا عن أدب القرآن، قال الرازي في تفسير قوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}: «جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة، وذلك غير جائز؛ لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به، بل يتدبر فيه، ثم يعمل بموجبه».

ولا حرج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن في مقام الجد؛ كأن يأسف أسفًا شديدًا لنزول كارثة، قد انقطعت أسباب كشفها عن الناس، فيقول: {لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ}، أو يحاوره صاحب مذهب فاسد، يحاول استهواءه إلى باطله، فيقول: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}، والإثم الكبير في أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة، فيتمثل بالقرآن حتى في مقام الهزل والمزاح.

فوائد ضرب المثل:

يُضرب المثل لتقرير حال الممثل في النفس، حيث يكون الممثل به أوضح من الممثل، أو يكون للنَّفْس سابقة ألفة وائتناس به، كما ضرب الله مثلاً لحال المنفق رياءً، حيثُ لا يَحْصُل من إنفاقه على شيءٍ من الثواب، فقال تعالى: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا}، فقد مَثَّل حال المرائي في إنفاقه بحال الحجر الأملس يكون عليه تراب، فيصيبُه مطرٌ غزير، فيذهبُ بما عليه من تراب، فأعمال المُرائي مثل التراب الذي كان على الحجر، فإنَّها تذهب هباء، ولا يجد لها ثوابًا، وفي هذا المثل تقرير لخيبة المرائي على وجه أبلغ ما يكون.

ويُضرب المثل للترغيب في الممثل، حيثُ يكون الممثل به مِمَّا تستَحْسِنُه النفوس وترغب فيه، كما ضرب الله مثلاً لحال المُنْفق في سبيل الله، حيث يعود عليه الإنفاق بخير كثير، فقال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ

سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}.

ويُضرب المثل للتنفير، حيثُ يكون الممثل به مما تكرهه النفوس وتنفر منه، كما ضرب الله مثلاً لحال المغتاب، فقال تعالى: {وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ}، وليس من شكٍّ في نفور الطِّباع من أكل لحم الأخ وهو ميت، فينبغي أن يكون نفوره من الغيبة بمقدار هذا النفور.

ويضرب المثل لمدح الممثل، حيث يكون في الممثل به صفات تستحسنها النفوس، وتمدح من يحرز مثلها، كما ضرب الله مثلاً لحال الصحابة – رضي الله عنهم – فقال تعالى: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}.

فالزرع يخرج شطأه، وهو ما تفرع في شاطئيه؛ أي جوانبه، ثم يقوى ويستغلظ أي يصير بعد الدِّقّة غليظًا، وكذلك حال الصحابة؛ فإنَّهم كانوا في بدء الأمر قليلاً، ثم أخذوا في النمو، حتى استحكم أمرهم، وامتلأت القلوب إعجابًا بعظمتهم.

ويضرب المثل للذَّمِّ، حيث يكون للممثل به صفة يستقبحها الناس، ويذمون من رضي لنفسه بمثلها، كما ضرب الله مثلاً لحال من آتاه الله كتابه، فنكث يده من العمل به، وانحط في أهوائه، فقال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، فقد مثلت الآية حال العالم المنحطِّ في أهوائه بحال الكلب، الذي هو أخبث الحيوان وأخسها نفسًا، ذلك أن المنحط في أهوائه شديد اللهف على الدنيا، قليل الصبر عنها، فلهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه.

ويضرب المثل في مقام الاحتجاج، حيث يلزم من تسليم الممثل به، وإدراك أن الممثل مطابق له – الرجوع إلى الاعتقاد بالحق، كما ضرب الله مثلاً للدلالة على أنه

الإله الحق، وأن الأوثان لا تستحق أن تعبد، فقال تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ}.

إذ دلَّ بالمثل على عجز الأصنام عن أن تنفع عابدها بشيء؛ إذ مثَّل حالَها بحال العبد المملوك الذي لا يقدرُ على شيء، ودلَّ على كمال قُدرته؛ إذ جعل في مقابلة العبد المملوك الممثل للأصنام مَن اتسع رزقه وكان ينفق منه كيف يشاء، ومن له مسحَة من عقل لا يتولى العاجز بالعبادة، ويدع عبادة القادر على كل شيء.

ومن بديع أسلوب القرآن في ضرب المثل أن يسوق الجمل، مستعملاً لها في معانيها الحقيقية، قاصدًا بها غرضًا خاصًّا؛ كالاحتجاج على بعض العقائد، وبعد أن يفيد بها هذا الغرض يعود إلى جعلها مثلاً يرمي إلى غرض من الأغراض التي تضرب لها الأمثال، فانظروا إن شئتم إلى قوله تعالى: {وَهُوَ الوَاحِدُ الْقَهَّارُ * أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ}.

فقوله تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً... إلى قوله {زَبَدٌ مِثْلُهُ} ظاهر في معنى تقرير حجة على كمال قدرته تعالى، وبعد أن أقام به حجة على المشركين جعل هذا القول نفسه مثلاً يستبين به الحق والباطل، فقال تعالى: {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ}، وهذا من الإيجاز الذي بلغ به القرآن أعلى طبقات البلاغة.

المَقالُ الرابعُ والثلاثونَ:

إعْرابُ فاتِحَةِ الكتابِ وبلاغتها:

تقديم:

الإعراب هو الإبانة، يقال: أعرب عنه لسانه، وعرَّب، أي أبان وأفصح، وسُمِّي الإعراب إعراباً، لتبينه وإيضاحه، وعرَّب منطقه، أي هذَّبه من اللحن إذا لم يلحن في الإعراب.

وقال بعضهم: إنَّ أقومَ طريق يُسلك في الوقوف على معنى القرآن الكريم، ويُتوصَل به إلى تبيين أغراضه، هو معرفة إعرابه، ذلك لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

اللغة: أعوذُ أي أعتصم، الشيطان: يكون على وزن فعْلان، من شاط يشيط أي مال به وأهلكه، أو على وزن فِعال، من شطن، أي بَعُدَ وأبعده عن الخير وبعد غوره في الشر. الرجيم:فعيل هنا بمعنى مفعول، والمرجوم لغة هو المطرود والملعون.

الإعراب:

أعوذ: فعل مضارع مرفوع، وهو معتل أجوف

بالله: جار ومجرور، متعلقان بأعوذ.

من الشيطان: جار ومجرور متعلقان بأعوذ أيضا.

الرجيم: نعت للشيطان

وجملة الاستعاذة ابتدائية لا محل لها من الاعراب.

بسم الله الرحمن الرحـــيم

اسم: قد يكون اشتقاقه من السمو (العلو)، وقد يشتق من السِّمة (العلامة)،

وفيه خمس لغات، إسم بكسر الهمزة، وأُسم بضمها، وسِم بكسر السين، وسُم بضمها، وسُمي بوزن منى.

الله: علم لا يطلق إلا على المعبود بحق.

الرَّحْمَن: صيغة مبالغة على وزن فعلان، فيه معنى المبالغة للصفات الطارئة كعطشان وشبعان.

الرَّحيم: صيغة فعيل، وهي تدل على وصف فعلي، فيه معنى المبالغة للصفات الدائمة، ولذا نجد أن الوصفين متلازمين.

الإعراب:

بسم: جار ومجرور متعلقان بمحذوف، والباء هنا للاستعانة، والجار والمجرور في محل نصب مفعول به مقد، وهما متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف.

الله: مضاف إليه.

الرحمن الرحيم: صفتان لله سبحانه وتعالى، وجملة البسملة ابتدائية، لا محل لها من الإعراب.

البلاغة:

في البسملة تظهر لنا البلاغات الآتية:

١ – في متعلق باسم الله، يكون الفعل مضارعا، لأنه الأصل، والتمسك بالأصل أولى، لأنه يفيد التجدد والاستمرارية، ولكنه حُذف لكثرة دوران المتعلق به على الالسنة، وإذا كان المتعلق به اسما فإنه يفيد الديمومة والثبوت، كأنما الابتداء باسم الله حتم لازم دائم في عملنا وأقوالنا.
– الإيجاز بإضافة العام إلى الخاص، ويسمى إيجاز قصر.
٣ – مع جعل الباء للاستعانة، يكون في الكلام استعارة مكنية تبعية لتشبهها بارتباط يصل بين المستعين والمستعين به، وإذا جعلنا الياء للالتصاق فيكون في الكلام مجاز علاقته المحلية.

ومن فوائد البَسْمَلةِ ما يلي:

١ – البسملة آية من سورة فاتحة الكتاب، وهى كذلك عند أوائل السور عند الشافعي.
٢ – لم يوصف في العربية بالرحمن بالألف واللام إلا الله سبحانه وتعالى.
٣ – تكتب بسم الله بغير ألف في البسملة خاصة، استغناء عنها بياء الاستعانة، بخلاف قوله سبحانه وتعالى: «اقرأ باسم ربك الذي خلق»
٤– تحذف الألف من الرحمن لدخول الألف واللام عليها.
٥ – يقال لمن قال: «بسم الله الرحمن الرحيم» مبسمل، وهو ضرب من النحت اللغوي.

فاتحة الكتاب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)
الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)

اللغة:

الحمد: الثناء بالجميل، والنداء عليه باللسان.
رب: الرب هو السيد والمالك والمعبود.
المربي: الذي يسوس من يربيه ويدبره، وهو اسم فاعل حذفت ألفه.
العالمين: جمع عالم بفتح اللام، والمراد به جميع الكائنات.
الدين: الجزاء، ويوم الدين هو يوم الجزاء، ومنه قول العرب «كما تدين تدان».
الصراط: الطريق الواضح والمنهاج، قال جرير:
أميرُ المؤمنينَ على صراطٍ إذا اعوجَّ الموارِدُ مستقيمِ

الإعراب:

الحَمْدُ: مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة.
لله: جار ومجرور، متعلقان بمحذوف خبر.

ربِّ: صفة لله أو بدل منه.

العالمين: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الياء، نيابة عن الكسرة، لأنه ملحق بجمع المذكر السالم.

الرحمن الرحيم: صفتان لله تعالى.

مالك: صفة رابعة لله، وقرئ ملك.

يَوْمِ الدينِ: يوم مضاف إليه، الدين مضاف إليه ثان.

إياكَ: ضمير منفصل في محل نصب مفعول به مقدم للاختصاص.

نَعْبُدُ: فعل مضارع مرفوع، فاعله ضمير مستتر، تقديره نحن.

وإياك نستعين: عطف على إياك نعبد، ونستعين فعل مضارع مرفوع، وهو معتل أجوف.

اهدنا: فعل أمر (طلب ورجاء) مبنى على حذف العلة، وهو هنا بمعنى الدعاء، نا ضمير متصل، في محل نصب مفعول به، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوبا تقديره أنت.

الصراط: مفعول به ثاني.

المستقيم: صفة للصراط، وهو معتل، وعين الفعل فيه واو.

صراط: بدل من الصراط منصوب.

الذين: اسم موصول، مضاف إليه في محل جر.

أنعمت: فعل ماض مبنى على السكون لاتصاله بضمير رفع متحرك.

عليهم: جار ومجرور متعلقان بـ أنعمت عليهم.

غير: بدل من الضمير في عليهم، أو من الذين.

المغضوب: مضاف إليه مجرور بالكسرة.

عليهم: جار ومجرور في محل رفع، نائب فاعل للمغضوب، لأنه اسم مفعول.

ولا: الواو حرف عطف، ولا زائدة لتأكيد معنى النفي.

الضالين: معطوف على المغضوب عليهم مجرور، وعلامة جره الياء لأنه جمع مذكر سالم.

البلاغة:

على الرغم من احتواء فاتحة الكتاب على سبع آيات فقط، إلا أنَّ بها من البلاغة

الكثير، وبها من الفوائد الكثير أيضا، ولنرى ذلك:

١ – أساليب البلاغة بها:

جملة « الحمد لله « رغم أنها خبر، إلا أنها استعملت لإنشاء الحمد، وفائدة الجملة الاسمية ديمومة الحمد، واستمراره وثباته.

انظر إلى فن التقديم في قوله سبحانه وتعالى: «إياك نعبد وإياك نستعين»، فقد قدم الضمير لحصر العبادة والاستعانة بالله وحده، وقدمت العبادة على الاستعانة، لأن الاستعانة ثمرة العبادة، ثن أنه أعاد كلمة إياك مع الفعل الثاني مؤكدا القصد من ذلك.

ويظهر فن الاختصاص أيضا من قوله «لله» للدلالة على أن جميع المحامد مختصة به، كذلك قوله: «مالك يوم الدين» تبين زوال المالكين، ذلك اليوم.

يظهر هنا فن الالتفات من لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب، وبالعكس، بغرض التمهيد لتنشيط الذهن، والطلب بعد التمهيد.

قوله سبحانه وتعالى «صراط الذين أنعمت عليهم» فقد ذكر النعمة، فتلاءمت مع الخطاب، ثم قوله «غير المغضوب عليهم» فوصل لأوج الالتفات.

براعة الاستهلال، بمعنى أن تبتدئ كلامك بما يشير إلى الغرض المقصود من غير تصريح.

الاستعارة التصريحية في قوله: «اهدنا الصراط المستقيم» فقد شبه الدين الحق بالصراط المستقيم، الذي ليس به اعوجاج.

التفسير بعد الإبهام، في قوله «صراط الذين أنعمت عليهم».

السجع في «الرحيم – المستقيم»، «نستعين – الضالين».

٢ – مراتب الالتفات في السورة:

عدل عن الغيبة إلى الخطاب بقوله: «إياك نعبد وإياك نستعين «بعد قوله: «الحمد

لله رب العالمين».

بوصوله إلى غاية الغايات وهى العبادة، قال: «إياك نعبد وإياك نستعين» فخاطب بالعبادة إصراحا وتقربا.

بالوصول لآخر السورة، قال: «صراط الذين أنعمت عليهم» فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة، ثم قال: «غير المغضوب عليهم» عطفا على موضع التقرب إلى الله.

أتى بنون الجمع في قوله سبحانه: « نعبد – نستعين « والمتكلم واحد.

الفوائد التي اشتملت عليها فاتحة الكتاب:

الألف واللام في الحمد للجنس، لأن حقيقة المحامد ثابتة لله تعالى.

سميت هذه السورة « الفاتحة « لأنها أول القرآن، وبراعة استهلاله، وتسمى كذلك « أم الكتاب « ولها أسماء أخرى مثل «السبع المثاني، الوافية، الشافية، الرقية، الكنز، الأساس،.... ».

كلمة «غير» لفظ غير مذكر مفردا، إلا أنه إذا أريد به مؤنث جاز تأنيث فعله المسند إليه.

آخر الفاتحة «ولا الضالين» وأما لفظ آمين فليس منها ولا من القرآن مطلقا، وهو اسم بمعنى استجب.

قد يقال «إن المؤمنين مهتدون» فما معنى طلبها ؟ والجواب: أن المطلوب هو الثبات على الهدى أو زيادته.

الأرجح أن الفاتحة هي أول سورة كاملة نزلت، وأمر النبي ﷺ بجعلها أول القرآن.

المقالُ الخامِسُ والثلاثونَ:

تقديم:

في مسند أحمد، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ رضي الله عنه أنه سَمِعَ من حدثه بخطبة النبي صلى الله عليه وسلم فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ»؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم.

ونحن نعلم أن مؤذن الرسول هو بلال بن رباح، وقد نصره سيدنا رسول الله على أحد كبار الصحابة وقال له معنفا: إنك رجل فيك جاهلية، لأنه قال لبلال: « يا ابن السوداء».

وكان سيدنا رسول الله ﷺ يستشهد بالشطر الثاني من بيت سحيم عبد بني الحسحاس، والبيت يقول:

عُمَيرةَ وَدِّع إن تَجَهَّزتَ غَادِيا كَفَى الشَيبُ والإسلامُ لِلمَرءِ ناهيا

لكن سيدنا رسول الله ﷺ كان يقوله: «كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيا»

وكان إذا سُئل في ذلك قال: «إنني لست بشاعر»،وكنت وأنا في مرحلة التعليم الثانوي أتعجب من أخلاقيات عنترة بن شداد، في كثير من أشعاره، خصوصا قوله:

وأَغُضُّ طرفي ما بدَتْ لي جارَتي حتى يُواري جارتي مأْواها
إني امـرؤٌ سَمْحُ الخليقة ماجـدٌ لا أتبعُ النفسَ اللَّجوجَ هواها
ولئنْ سألْتَ بذاكَ عـبلة َخَبَّرَتْ أن لا أريدُ من النساءِ سواها

وكنت أتعجب من البون الشاسع بين نبل عنترة وفُحْشِ سَحيم، عبد بني

الحَسْحَاس، وبعد دراستي، وجدت أن طائفة من الشعراء قد عاشوا ظروفا حياتية وبيئية خاصة قبل الإسلام، خلفت جملة من العقد النفسية البسيطة والمركبة، نتيجة سواد اللون والعرق والرق، وقد انعكست بشكل دقيق في بناء أشعارهم، وهذه الطائفة سُميت « شعراء عبيد العرب « وكان سحيم واحدا منهم، وكان شعره يمتاز بالغزل الفاحش مما تسبب في مقتله.

(الأبناء – الموالي – العبيد – الأسرى والرقيق): كانت من سمات المجتمع الجاهلي، وسحيم المملوك ينتمي لبني الحسحاس وهو مثالا حيا لطبقة عاشت وأثبتت وجودها الفني رغم ذل العبودية، وقيودها، وهذه الطبقة منها العنصر العربي المتمثل في طائفة الأسرى، وتلك الطائفة من الهجناء هم أبناء الحبشيات السوداويات، كما توجد طائفة الصعاليك المعروفة باسم «أغربة العرب» كما يوجد العنصر الأجنبي كالرقيق المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة، مثل الحبشة، ومنها سحيم، فهو واحد من العبيد الأجنبي المجلوب من الحبشة.

كان نتيجة لتواجد هذه الطبقات بقاع المجتمع أن امتهنت بعض أعمال الذل والمهانة نتيجة ما قدمت لهم الحياة من فرص ونتيجة التمرد على الواقع الاجتماعي، ونتيجة الوضع الاجتماعي المزري من ناحية، أو نتيجة لون البشرة الأسود مما تستهجنه العرب، كذلك بسبب اللكنة المعروفة بالخلخانية أو حتى لعدم اشتراكهم برابطة الدم.

في هذا الواقع الذي يؤمن فيه العربي بأصوله وبجنسه ولونه عاش الشاعر المخضرم سحيم أو» حيَّة «كما أسماه البعض، وكان عبدا مملوكا لأحد رجال بني أسد، يقال له أبو معبد، واسمه جندل، فجاء شعره معبرا عن علل النقص التي كان يستشعرها، فقد أطال التشبيب بنساء قومه، ولا سيما مواليه، مما تسبب في مقتله بأسلوب مأساوي.

كان سحيم شاعرا فحلا مطبوعا، حلو الشعر، رقيق حواشي الكلام، غير أن لسانه به عجمة «لثغة» فتسببت له في عقدة بالنقص، فحاول إثبات وجوده بالفحش من الشعر.

والعجيب أن سحيم كان كثير الحديث في أشعاره عن الأخلاق، وهو بعيد كل البعد عنها، فهو بادعائه كان يحاول إخفاء أمر تعارفت عليه العرب في أخلاق شعرائها العبيد، وقد ظهر ذلك في قول الخليفة عثمان ابن عفان، عندما قال لمن حاول بيع سحيم له: « إن الشاعر لا حريم له « إن شبع شبب بنساء أهله، وإن جاع هجاهم «، والبيت التالي يظهر عقدة من عقد سحيم:

فلو كنت وردا لونه لعشقنني ولكن ربـــي شانني بسواديا

وإذا نظرنا إلى عنترة بن شداد وهو ابن حبشية مثل سحيم ومشتركا معه في الإحساس بالعبوديةِ وسطوةِ اللوْنِ وضآلةِ الأصْلِ، على الرغم من تمايز في الأصل، فعنترة حقق أمام عقدة نقصه التي أَرقته وقَضت مَضجعه مُعادلا تمثل بالخلق الحسن الصادق غير المدَّعي الذي تدل عليه أشعاره العفيفة وليست كتلك التي عند سحيم، بل مثلت الفروسية والشجاعة الحقيقية غير المقنعة التي طالما حاول عنترة أن يجلي بها سواده ليرفع من شأنه حين تتشابك السيوف ويرتفع الغبار ليغطى سواد الجلد فيقول:

وليس يعيب السيف إخلاق غمده إذا كان في يوم الوغى قاطع الحد

أو يقول:

لئن أك أسودا فالمسك لوني وما لسواد جلدي من دواء

وهذا بخلاف قصيدة سحيم التي لم تخل من معاني الغزل الحسي والنزق الجاهلي ويكثر من أبياتها بشكل يرفضه الإسلام وسننه، وهذا دليل على بقاء الشعر بكل تناقضاته، ويحمل معه الكثير من المرفوض، ذلك لأن الشاعر ابن البيئة، وليس شرطا أن يكون فيها خاضعا لمقاييس أخلاقية راقية.

ودعونا الآن نرى بعض أبيات قصيدة سحيم:

عُمَيرةَ وَدِّع إن تَجَهَّزتَ غَادِيا كَفَى الشَيبُ والإسلامُ لِلمَرءِ ناهيا
جُنُوناً بِها فيما اعتَشَرنا عُلالةً عَلاقَةَ حُبٍّ مُستَسِراً وَباديا

لَيالي تَصطادُ القُلوبَ بِفاحِمٍ تَراهُ أَثيثاً ناعِمَ النَبتِ عافِيا
وجيدٍ كَجيدِ الرَيمِ لَيسَ بِعاطِلٍ مِنَ الدُرِّ والياقُوتِ والشَذرِ حالِيا
كَأَنَّ الثُرَيّا عُلِّقَت فَوقَ نَحرِها وَجَمرَ غَضيً هَبَّت لَهُ الريحُ ذاكيا
إِذا اندَفَعَت في رَيطَةٍ وَخَميصَةٍ ولاثَت بِأَعلَى الرِدفِ بُرداً يَمانيا
تُريكَ غَداةَ البَينِ كَفّاً ومِعصَماً وَوَجهاً كَدينارِ الأَعِزَّةِ صافيا
فَما بَيضَةُ باتَ الظَليمُ يَحُفُّها وَيَرفَعُ عَنها جُؤجُؤاً مُتَجافيا
وَيَجعَلُها بَينَ الجَناحِ ودَفِّهِ وَيُفرِشُها وَحفاً مِنَ الزِفِّ وافيا
فَيرفَعُ عَنها وَهيَ بَيضاءُ طَلَّةٌ وَقَد واجَهَت قَرناً مِنَ الشَمسِ ضاحيا
بِأَحسَنَ مِنها يَومَ قالَت أَراحِلُ مَعَ الرَكبِ أَم ثاوٍ لَدَينا لَياليا
فَإِن تَثوِلا تُملَل وَإِن تضحِ غادياً تُزَوَّد وَتَرجِع عَن عُمَيرَةَ راضيا
وَبِتنا وِسادانا إِلى عَلَجانَةٍ وحِقفٍ تَهاداهُ الرِّياحُ تَهادِيا
تُوَسِّدُني كَفّاً وتَثني بِمِعصَمٍ عَلَيَّ وَتَحوي رِجلَها مِن وَرائيا
وَهَبَّت لَنا ريحُ الشَمالِ بِقِرَّةٍ ولا ثَوبَ إِلّا بُردُها وَردائيا
فَما زالَ بُردِي طَيِّباً مِن ثِيابِها إِلَى الحَولِ حتّى أَنهَجَ البُردُ بالِيا
أَلا يا طبيب الجن بالله داوني فإن طبيب الإنس أعياه ما بيا
سَقَتني عَلى لَوحٍ مِنَ الماءِ شَربةً سقاها بها الله الذِّهاب الغواديا
وأَشهَدُ عِندَ اللهِ أَن قَد رأَيتُها وعِرينَ مِنها إِصبَعاً مِن وَرائيا
أَلا أَيُّها الوادي الَّذي ضَمَّ سَيلُهُ إِلَينا نَوَى الحَسناءِ حُيِّيتَ واديا
وما جئتها أبغي الشفاء بنظرةٍ فأبصرتها إلا رجعت بدائيا

ولا طلع النجم الذي يهتدي به ولا الصبح حتى هيجا ذكرهاليا

أشوقا ولما يمض لي غير ليلةٍ رويد الهوى حتى يغيب لياليا

تَجَمَّعنَ مِن شَتَّى ثَلاثٍ وأَربَع وَواحِدَةٍ حَتىَّ كَمَلنَ ثَمانِيا

سليمي وسلمى والرباب وتربها وأروى وريا والمنى وقطاميا

وأَقبَلنَ مِن أَقصَى الخِيامِ يَعُدنَني نَوَاهِدَ لَم يَعرِفنَ خَلقاً سَوائيا

يَعُدنَ مَريضاً هُنّ هَيَّجنَ داءَهُ أَلا إِنَّما بَعضُ العَوائِدِ دائيا

وَقائِلَةٍ والدمعُ يحدرُ كحلها أَهَذا الَّذي وَجَدا يُبكّي الغَوانِيا

فَلَم أَر مِثلي مُستَغيثاً بِشَربَةٍ وَلا مِثلَ ساقينا المُصَرَّدِ ساقِيا

وَسِربُ عِذاري بِتنَ جَنبَيَّ موهِناً مِنَ اللَيلِ قَد نازَعتهُنَّ رِدائِيا

أَخَذنَ عَلى المِقراةِ أوعَن يَمينِها إِذا قُلتُ قَد وَرَّعنَ أَنزَلنَ حادِيا

أَشارَت بِمِدراها وَقالَت لِتربِها أَعَبدُ بَني الحَسحاسِ يُزجي القَوافِيا

رَأَت قَتَباً رَثّاً وسَحقَ عَباءةٍ وأَسوَدَ مِمّا يَملِكُ الناسُ عارِيا

أغاليُ ما شَمسُ النَهارِ إِذا بَدَت بأَحسَن مِما بَينَ بَردَيكَ غالِيا

تَحدَّرنَ مِن تِلكَ الهِضابِ عَشِيَّةً إِلى الطَلعِ يَبغين الهَوى وَالتَصابِيا

فَلَو كُنتُ وَرداً لَونُهُ لَعشقنَني وَلَكنَّ رَبّي شانَني بِسَوادِيا

لَعبنَ بِدَكداكٍ خَصيبٍ جَنابُهُ وأَلقَينَ عَن أَعطافِهِنَّ المَراديا

وَقُلن لِمِثلِ الرئمِ أَنت أَحَقُّنا بنزع الرداء إِن أَرَدت تَخالِيا

فَقامَت وَأَلقَت بِالخِمارِ مدلةً تَفادى القُباحُ السودُ مِنها تَفادِيا

تَمارين حَتّى غابَ نَجمُ مَكيدٍ وَحَتّى بَدا النَجمُ الَّذي كانَ تالِيا

وَحَتّى استَبانَ الفَجرُ أَشقَرَ ساطِعاً كَأَنَّ عَلى أَعلاهُ سِبّاً يَمانِيا
وأَصبَحنَ صَرعَى في البُيُوتِ كأَنَّما شَرِبنَ مُداماً ما يُجِبنَ المُنادِيا
فَعَزَّيتُ نَفسي واجتَنَبتُ غَوايَتي وقَرَّبتُ حُرجوجَ العَشيَّةِ ناجِيا
شَبوباً تَحاماهُ الكِلابُ تَحامِيا هُوَ اللَيثُ مَعدُوّاً عَليهِ وَعادِيا
يَثيرُ ويُبدي عَن عُروقٍ كَأَنَّها أَعِنَّةُ خَرّازٍ جَديداً وَبالِيا
فَدَع ذا ولَكِن هَل تَرى ضَوءَ بارِقٍ يُضيءُ حَبيّاً مُنجِداً مُتَعالِيا
يُضيءُ سَناهُ الهَضبَ هَضبَ مُتالِعٍ وحُبَّ بِذاكَ الهَضبِ لَو كانَ دانِيا
فَمَرَّ عَلى الأَنهاءِ فالتَجَّ مُزنُه فَعَقَّ طَويلاً يَسكُبُ الماءَ سَاجِيا
ومَرَّ عَلى الأَجبالِ أَجبالِ طَيِّئٍ فغادَر بالقيعان رَنقاً وصافيا
فأَصبَحتِ الثِيرانُ غَرقى وأَصبَحَت نِساءُ تَميمٍ يَلتَقِطنَ الصَياصِيا
فَإِن تَرتَحِل شاماً فَشَاما نودُّه وَإِنَّ يمناً القَلبُ صَبٌّ يَمانِيا

المحتويات

المقال	الموضوع	الصفحة
المقال الأول	البلاغة – الفصاحة – البيان	١٥
المقال الثاني	امرؤ القيس والبلاغة	٢٦
المقال الثالث	مقياس الفصاحة – نفي الشعر عن القرآن	٣١
المقال الرابع	الحدود الزمانية والمكانية – البديع	٣٤
المقال الخامس	استكمال أنواع البديع	٤٢
المقال السادس	الرصينُ مِنَ الكلامِ	٤٦
المقال السابع	مقاييس الفصاحة	٥٠
المقال الثامن	أقسام البلاغة	٥٤
المقال التاسع	إن من البيان لسحرا	٥٨
المقال العاشر	مكامن الدر في اللغة	٦١
المقال الحادي عشر	لمحات من معلقة عمرو بن كلثوم	٦٧
المقال الثاني عشر	المجاز	٧٠
المقال الثالث عشر	صفحة السماء	٧٤
المقال الرابع عشر	رحلة امرئ القيس إلى تيماء	٧٨
المقال الخامس عشر	أوجه الاعجاز في القرآن الكريم	٨٢
المقال السادس عشر	بلاغة القرآن الكريم وعيون الشعر	٨٩
المقال السابع عشر	في بلاغة القرآن الكريم	٩٤
المقال الثامن عشر	شعراء النقائض	٩٧
المقال التاسع عشر	نماذج من شعر النقائض	١٠٢

المقال العشرون	بلاغة النبي وبلاغة القرآن الكريم	١٠٤
المقال الواحد والعشرون	أسماء الله الحسنى	١٠٩
المقال الثاني والعشرون	بين الأسماء والصفات	١١٤
المقال الثالث والعشرون	أقسام الفعل	١١٩
المقال الرابع والعشرون	البـــيان	١٢٣
المقال الخامس والعشرون	أساليب البلاغة (الأسلوب العلمي)	١٢٦
المقال السادس والعشرون	أساليب البلاغة (الأسلوب الخطابي)	١٢٩
المقال السابع والعشرون	أساليب البلاغة (الأسلوب الأدبي)	١٣٢
المقال الثامن والعشرون	التشبيه	١٣٥
المقال التاسع والعشرون	المجاز اللغوي	١٤٠
المقال الثلاثون	المجاز العقلي	١٤٣
المقال الواحد والثلاثون	مطابق الكلام لحال السامعين	١٤٧
المقال الثاني والثلاثون	علم البديع	١٥١
المقال الثالث والثلاثون	الأمثال في القرآن الكريم	١٥٤
المقال الرابع والثلاثون	إعراب فاتحة الكتاب وبلاغتها	١٦٣
المقال الخامس والثلاثون	عميرة ودع إن تجهزت غاديا	١٦٩